

قراءة في كتاب

إنفجار المشرق العربي

(من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق 1956– 2006)

ل: جورج قرم

إعداد مجموعة من الباحثين   جمع وتنسيق: منعيم أمشاوي

إشراف: الدكتور سعيد الحسن



جامعة محمد الخامس السويسي

كلية العلوم القانونية والاقتصادية

والاجتماعية

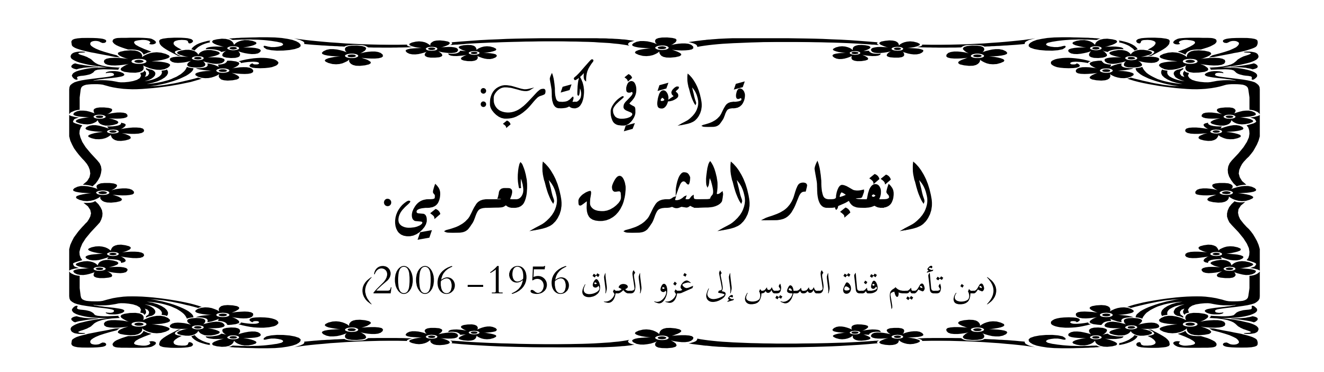
ســــلا

مسلك ماستر العلوم السياسية

الفوج الرابع

الفصل الثالث s3

وحدة تحليل النظام الدولي



قراءة في كتاب:

انفجار المشرق العربي.

(من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق 1956– 2006)

المؤلف : جورج قرم.

ترجمة: محمد على مقلد

اعداد مجموعة من الباحثين.

جمع وتنسيق: منعيم امشاوي

تحت إشراف الأستاذ:

سعيد الحسن

«إن قراءة النص تضاهي في أهميتها كتابة النص، فالقراءة تأتي فعلاً قبل الكتابة، وتأتي أيضاً بعدها، ولا وجود لنص دون قارىء. وكيفية قراءة النص تحدد تفسيره وتركز معانيه. بهذا المعنى، فإن القراءة هي في صميمها مشاركة في كتابة».

هشام شرابي.

بطاقة تقنية للكتاب:

عنوان المؤلف: انفجار المشرق العربي (من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق 1956-2006)

عنوان المؤلف الأصلي: Le Proche-Orient éclaté 1956-2006

اسم المؤلف: جورج قرم Georges Gorm

ترجمة: محمد على مقلد

تحقيق: نسيب عون

مراجعة: جورج قرم

الناشر: دار الفارابي – بيروت-لبنان

الطبعة: الأولى 2006

عدد الصفحات: 863

عدد الأجزاء: 4

الجزء الأول: البنية المستحيلة للشرق الاوسط.

الجزء الثاني: من لغليان الثوري إلى الفورة النفطية 1956-1975

الجزء الثالث: من الطفرة النفطية الى تعدد النزاعات العربية 1975-1990

الجزء الرابع: بسط الهيمنة الامريكية والسلام المفقود 1991-2003

الخاتمة: استمرار الانحطاط

عدد الفصول: 23

عدد الملاحق: 6

مجموعة العمل :

المقدمة:	منعيم أمشاوي
الجزء الأول:	منعيم أمشاوي
الجزء الثاني:	حمدي أتراس
الجزء الثالث:	سيف الدين جرادات
الجزء الرابع:	محمد واحاسي
الخاتمة والملاحق:	طارق بنتابت
جمع وتنسيق:	منعيم أمشاوي
اشراف:	الاستاذ سعيد الحسن.

مقدمة القراءة:

يتناول هذا الكتاب جزء من تاريخ منطقة "المشرق العربي"، بالسرد والتحليل لأحداث نصف القرن الماضي، إبتداءاً من سنة 1956 إلى غاية 2006[1]، ويضم الكتاب اربعة اجزاء إضافة إلى مدخل حول ما أسماه الكاتب أوهام الذاكرة والإدراك وخاتمة حول استمرار الانحطاط، وأخيرة مجموعة من الملاحق المدعمة.

إذا كانت الأجزاء (الثاني والثالث والرابع) في غالبها سرد تاريخي للأحداث التي شهدتها المنطقة على امتداد نصف القرن الماضي، فإن الكاتب حمل على عاتقه في الجزء الأول من هذا الكتاب، التصدي لمجموعة من المفاهيم الجيوسياسية السائدة حول المنطقة والتي تحاول تفسير وإدراك المنطقة، وعلى رأسها مفهوم الشرق الأوسط والشرق الأدنى والعالم الإسلامي وغيرها، كما استغل المؤلف الجزء الأول من مؤلفه لبناء مفهوم تحليلي يرى أنه الأصلح لتفسير وإدراك المنطقة.

"المشرق العربي" هو المفهوم الذي يتبناه هذا الكتاب والذي بناه على أساس بعدما بين عيوب المفاهيم السائدة، وأعتبره الأسلم بإعتباره يميز الهوية الاجتماعية للمنطقة، هذه الأخيرة (أي الهوية) التي يعتبرها المؤلف موضوع المشاهدة التاريخية.

ان هوية المنطقة الجامعة والمشترك الأكبر يظل هو "العروبة"، التي تستند بالأساس على اللغة العربية باعتبارها العنصر الأكثر ديمومة تاريخياً، عوض الدين بمبرر أن المنطقة شهدت تنوع على مستوى الأديان التي تدينت بها تاريخيا

على سبيل التحقيب فإن الكتاب يميز بين مرحلتين تاريخيتين مرت بهما المنطقة، تميزت الأولى بالنهوض القومي التحريري بقيادة عبد الناصر، والتي انطلقت بقراره التاريخي بتأميم قناة السويس عام 1956. وتميزت هذه ببروز حالة من النهوض الثوري اجتاحت المنطقة العربية، وعرفت الثانية انحسار لهذا المد الثوري خاصة في أعقاب هزيمة سنة 1967، وما تلاها من صعود للفورة النفطية في البلدان التي كانت خارج أو ضد النفوذ الناصري.

تسعى هذه القراءة إلى تسليط الضوء على فصول الكتاب، وتبيان ما بين ثنياه من أفكار وتحليلات للأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة، معتمدين على تلخيص أهم الأفكار المجودة في فصول الكتاب وفق لنفس التقسيم المنهجي الذي اعتمده المؤلف، ثم التعليق عليها في نهاية كل جزء من الأجزاء الأربعة، على أن يكون

---

[1] الجدير بالذكر أن النسخة الأصلية للكتاب باللغة الفرنسية تم تحيينها من طرف المؤلف وأصبحت تشمل أحداث الأربع سنوات اللاحقة، أي إلى غاية 2010.

التعليق مقتصراً على القضايا التي نرى أنها في حاجة إلى ذلك إما تثميناً وإبرازاً للأهمية، أو نقداً وتنبيهاً للقارئ إلى ضرورة التدقيق والقراءة الكتاب قراءة نقدية، دون يعني ذلك أي انتقاص من الكتاب، بل من باب إبداء الرأي في قضايا لم تحسم فكريا وسياسيا، ولا تزال محل تطارح فكري.

تجدر الاشارة في ختام هذا الاستهلال أن مجموعة من الافكار التي سترد في التعليقات على أجزاء الكتاب، كانت خلاصة الحلقة النقاشية حول الكتاب رفقة مجموعة من الزملاء الطلبة الباحثين في ماستر العلوم السياسية، بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية – سلا، والتابعة لجامعة محمد الخامس السويسي بالرباط.

منعيم أمشاوي

الناظور: 2014/01/26

مقدمة في النقد المنهجي:

ان النقد المنهجي امر هام لتحرير الكتابات العربية المتأثرة بمفاهيم متناقضة وغير دقيقة، نتج عنها ترسيخ صورة مشوهة عن المنطقة العربية لدى المتلقي العربي والغربي. وتعزى أسباب هذا الغموض وتلك التناقضات، في الغالب إلى التخلف، أو إلى تأثير الغربي. وتجاوزه رهين بتأسيس منظومة فكرية عربية يبنى عليها نظام ادراكي متماسك. يمكن من افتحاص اسباب الانحطاط العربي المتواصل.

تعيش المجتمعات العربية حالة ضبابية فكرية وثقافية مطلقة أفقدتها الهوية الجماعية، وجعلتها محل تنازع (عروبة–اسلاموية–عصبيات المذهبية والقطرية)، ما ولد انقساما في تفسير الانحطاط، بين من يحصره في العوامل الداخلية، وبين من يرى في العامل الخارجي السبب الرئيس للانحطاط. في حين ان الاثنان متشابكان بشكل وثيق. وقد زادت "الصحوة الإسلامية" بدورها من ضبابية مشكلة الهوية بتنكرها لتراث النهضة العربية الأولى التي حاولت التوفيق بين الحداثة والتراث المحلي.

مدخل: أوهام الذاكرة والإدراك.

الذاكرة والتاريخ في منطقة الشرق الاوسط.

يوضح هذا المدخل بدايةً سبب اختيار حدث تأميم قناة السويس 1956 كنقطة انطلاق البحث، بإعتباره أول قرار سيادي ذو أثر في النظام الدولي، تتخذه جهة عربية. ليكون بذلك نقطة بدء مسار من سوء التفاهم بين المشرق العربي والغرب، سمته النزاعات والحروب. مايعني اعتماد مقاربات في قراءة الاحداث ترسم ملامح الساحة المشهدية وتفكك خطاباتها. إذ لايمكن رواية تاريخ منطقة بمعزل عن مناطق اخرى. غير أن هذا التنوع في الأحداث واللاعبين الدوليين ظل غائب على أغلب المحللين في ضل سيطرة التفسيرات الاحادية الجامدة. وفي ظل استمرار العودة إلى الذاكرة وأوهامها لتفسير أحداث آنية. وهو ما يدعو الى التساؤل حول دلالة عودة الأوربيين إلى الشرق الأوسط؟ هل من أجل تقليص النفوذ التركي وجلب التقنية أم من أجل ربط الصلة باللحظة الصليبية لإخضاع الإسلام واسترجاع الأراضي؟ هل هي طبيعة النظام الرأسمالي التوسعية التي لا علاقة لها بالدوافع الدينية والقومية؟

غير أن اعتبار حدث تأميم قناة السويس سنة 1956، نقطة انطلاق بإعتبارها أول قرار سيادي ذو أثر في النظام الدولي، أمر يحمل في طياته تهميش لمجموعة من المواقف التي عبرت من خلالها المنطقة عن رفضها

للهيمنة والطغيان الدولي، واتخذت قرارات سيادية مستقلة، وهكذا "ادعاء" يمكن اعتباره انتصار للاديولوجية الناصرية، دون اعتبار لأحداثٍ تاريخية سابقة.

تنظيم السرد التاريخي واشكاليته.

صعوبة الكتابة التاريخية حتمت تنظيم مجموعة من القضايا المنهجية والابستمولوجية، ووضعها على شكل ثلاث أسئلة. أولها تحديد الحيز الجغرافي الذي تهتم به هذه الدراسة. وثانيها موضوع الرصد التاريخي، (الإسلام كظاهرة كلية شاملة). ثم أخيرا نظام مقياس الزمن المعتمد للحكم على المادة المرصودة. كما يضاف الى هذه الاسئلة سؤال القيم الموجهة للتحليل والحكم على المرصود. وهو الامر الذي ظل غامضا في مختلف التأويلات التي تناولت قضايا المشرق العربي. لذلك فتنظيم السرد التاريخي يوقع المؤرخ في أفخاخ منهجية كثيرة.

محاولة دخول مغامرة سيرة تاريخية المنطقة تستدعي جهد في تنسيق الاحداث الكبرى التي هزت المنطقة خلال فترة النصف قرن المنصرم، وتحقيبه في ثلاث مراحل كبرى. تعالج المرحلة الأولى الغليان الثوري ضد الاستعمار عقب تأميم قناة السويس إلى حرب أكتوبر 73 والثورة النفطية. والمرحلة الثانية الحرب اللبنانية وتوقيع الصلح المنفرد من مصر وانتصار الثورة الإيرانية واندلاع الحرب بين العراق وإيران. في حين تروي المرحلة الثالثة حرب الخليج الأولى وعملية السلام التي انطلقت من مدريد.

المشرق العربي نموذج التخلف والانحطاط

انطلاقا من مقولة بورديل «كل عظمة تفترض حيزاً تسيطر عليه في الخارج أوسع من حيز سيطرتها في الداخل» يتأكد أن العالم العربي يعيش التخلف والانحطاط بدليل فقدانه السيطرة حتى على حيزه منذ عصور، رغم محاولاته الفاشلة للخروج من هذا الوضع. وهذا ما يعني ان كسر هذا النموذج مهمة صعبة تستوجب كخطوة اولى وعي بعمق التقهقر، والخروج من زمنيته التي تسعى إلى استرجاع التاريخ المقدس والمخيال الجماعي والمثال الأعلى والمعالم المعيارية الطابع. التي ظلت رهينة امجاد الماضي والعظائم المفقودة.

بدأ الإخفاق عند العرب بعجز الصحابة في الاتفاق عن نظام للخلافة بعد وفاة النبي، وبروز الصراع السني والشيعي. ويعزى اخفاقهم في بناء دولة المؤسسات إلى البداوة القبلية. ودينامية الاخفاق هذه شكلت عنصر فارق في التاريخ العربي، بإعتبار النجاح العربي الباهر في نشر الاسلام، السبب الذي يخفي مسالك الفشل المهيمنة على تاريخ العرب. ولتفسير هذا الانحطاط حمل البعض مسؤوليته للاسلام، والبعض الاخر للاتراك العثمانيين.

تفسير فشل العرب في بناء "الدولة" بسبب البنية التقليدية السائدة، وعلى رأسها القبلية والعشائرية، يحمل بعض الصوابية، إذا ما حصر مفهوم الدولة في الاشكال الحديثة التي ظهرت بعد الموجة الاستعمارية، غير أن هذه البنى لم تكن عائقاً كبيراً في وجه تجارب دولتية سابقة، كالتجربة الامبراطورية، وحتى المماليكية.

تفكيك انواع الخطاب التاريخي بشأن المنطقة.

مساءلة المفاهيم التي استخدمت في فهم تاريخ المنطقة، وفك تعقيدات الارضيات التاريخية التي بني عليها أمر ضروري، رغم صعوبته نظراً لثقل تقاليد الكتابة الجامدة التي تنطلق من نماذج حضارية اخرى والتي هيمنت على دراسة تاريخ المنطقة. ودراسة تاريخ المنطقة يستلزم اخذ مجموعة من الاحتياطات من مجموعة من الاحداث والقضايا. ان المجتمعات العربية لا تزال تفتقد الى لغة سياسية حديثة منتظمة ومؤسسة على الحرية السياسية، وهو نفس الامر في المجالين الثقافي والاقتصادي، ما يعني التركيز على لحظات استثنائية عبر فيها هذا المجتمع عن نفسه بشكل عفوي. ذلك أن الامزجة في هذا المجتمع متغيرة ومتقلبة، عكس التوحيد الذي اصبح مهيمن (الهوية الاسلامية)، فمجتمعات المنطقة تقلبت في اديولوجيات مختلفة، وهي موزعة بين هويات متناقضة وخاضعة لتأثيرات تاريخية متعددة، ما يجعلها مجزأة وقابلة للتفجر.

الجزء الأول: البنية المستحيلة للشرق الأوسط.

الطالب الباحث: منعيم أمشاوي

ينطلق هذا الجزء بشرح اسباب تتنوع المفاهيم الجيوسياسية الساعية الى وضع تعريف المنطقة (الفصل 1)، وتناول الاسس الثقافية التي تنظم التصورات على المنطقة (الفصل2)، ثم تحليل صوابية التصنيفات المفهومية التي تستعمل لتعريف هوية المنطقة (الفصل 3)، ما يمكن من التأمل في العروبة كهوية لمجتمعات المنطقة (الفصل 4)، وتفصيل عناصر التحقيب المعتمدة في السرد التاريخي (الفصل5).

الفصل الأول: شرق أدنى أم شرق أوسط؟ مشكلة جيوسياسية دولية.

تحديد المنطقة جغرافيا ومعرفة حدود بنيتها أمر صعب، نظراً من كون المصطلح الدال على المنطقة ليس محايداً، يكرس النظرة المحكومة بأدوات البحث التي وفرتها الثقافة الأوروبية أو الغربية. هذه الصعوبة يمكن اختزالها بحصر حقل البحث بمصلح "المشرق العربي"، رغم أنه ينقل البحث من حقل الجغرافيا إلى الانتروبولوجيا، ما يثير مجموعة من التساؤلات حول الاطار الجامع للمجتمعات العربية؟ هل هو اللغة أم الدين؟

الشرق الأدنى: مشرق أوروبا.

تعتبر مقولة "الشرق الأدنى" معادلة لما كان يسمى في الثقافة الاستعمارية الفرنسية ب"المشرق"، ذو المدلول التجاري. الذي تراجع بعد الحرب العالمية الثانية ومع هيمنة الولايات المتحدة الامريكية على الديبلوماسية الدولية، وحلت محله مفاهيم جيوسياسية انجولوسكسونية من قبيل "الشرق الأدنى" و"الشرق الأوسط".

الشرق الأدنى: تخوم الأمبرطورية البريطانية في الهند.

هذه الاختلافات التعبيرية ليست إعتباطية، بل كانت تعبر تاريخيا عن خلافات كبرى في صفوف البيروقراطية العسكرية والديبلوماسية البريطانية التي لم تكن تعتبر هذه المنطقة "الشرق الأدنى" ذات أهمية تتجاوز كونها ساحة تمركز عسكرية لحماية امبراطوريتها في الهند.

وقد استندت بريطانيا في سبيل سيطرتها على الهند، إلى الاختلاف بين الطوائف الاسلامية والبراهمانية، وكذلك لإحكام سيطرتها على العالم الإسلامي خلال فترة بين الحربين العالميتين، عملت على مطاوعة مؤسسة الخلافة الاسلامية لصالحها خاصة بعد تخلي الأتراك عنها. وخلال هذه الفترة حضرت الأجواء لعزل حكومة شبه الجزيرة العربية وتعويضها بقيادة أل سعود التي ادعت على غرار مملكة مصر وراثة الخلافة الاسلامية.

فرنسا، انكلتر، الولايات المتحدة: دول عظمى تدعي غيرة على الإسلام.

أدت السياسات البريطانية إلى إنفصال الهنود المسلمين "باكستان"، وتكوينهم قوة شرق اوسطية حليفة للمصالح الأنجلوسكسونية، التي ورثتها أمريكا عن بريطانيا. والتي سعت بدورها إلى تجنيد "العالم الإسلامي" ضدى السوفيات خلال الحرب الباردة، خاصة خلال الحرب الأفغانية. على نفس النهج سارت فرنسا التي رأت في القومية العربية الصاعدة تهديداً لمصالحها في المتوسط.

"فراغ القوة" أمام نفوذ الاتحاد السوفياتي.

انتبهت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى تعرض المنطقة إلى المطامع السوفياتية، بسبب الفراغ الذي سببه انسحاب القوتين الانجليزية والفرنسية، وسعت إلى سده عبر احلاف محلية. ولهذا الفراغ دلالة رمزية توحي بغياب هوية سياسية، جعلت البلدان العربية مادة تجاذب القوى الدولية، وهو أمر لا ينطبق على بلدان غير عربية في المنطقة كإيران وتركيا.

لقد تسبب هذا الفراغ في مصادرة سيادة الولايات العربية المنفلتة من السيطرة العثمانية، وفي قيام دولة اسرائيل، وفي المقابل فشلت قوى الحلفاء في فرضه على تركيا رغم محاولاتها البائسة. وهذا مرده الى الفشل الذريع والمتكرر في الجانب العسكري في الجانب العربي وتأثيره على شرعية القادة، في مقابل نجاح محاولة تركيا في تحديث جيشها.

موقع البحر الابيض المتوسط بين الشرق الادنى والشرق الاوسط.

رغم الاختلاف في النطاق الجغرافي لمفهومي "الشرق الأدنى" و"الشرق الأوسط"، فإن التركيز اثناء السرد التاريخي لبلدان الشرق الأدنى سيكون على منطقة المشرق "هلال الخصيب" إضافة إلى مصر وبلدان شمال افريقيا. في حين تظل بلدان شبه الجزيرة العربية أقرب إلى الاندراج ضمن الشرق الأوسط منها إلى الشرق الأدنى. ويبقى عنصر التمييز بين الشرقين "الأدنى والأوسط" هو البحر الأبض المتوسط، فالشرق الأوسط يتوفر على حدود متوسطية مهمة، غير انه لا يمكن ان تكون شواطئ المتوسط محور السرد التاريخي كما هو الحال عند اعتماد مفهوم الشرق الادنى.

اعتماد مفهوم "المشرق العربي" كبديل لتحديد الحقل الجغرافي وبناء الرواية التاريخية له ميزتان، هي النظر الى المنطقة بابعادها الاوروبية المتوسطية، وإبراز العلاقات الوثيقة التي قامت على ضفاف المتوسط. كما يميز

مفهوم الهوية الثقافية الاجتماعية للمنطقة "العربية"، وهو يعبر عن مدى جغرافي كان يسمى "الولايات العربية" اثناء النفوذ العثماني.

الهيمنة الراهنة لمفهوم العالم الإسلامي: إسلام "غير قابل للتجزئة"؟

يشكل مفهوما "الشرق الادنى والأوسط" تفريعين لمفهوم أوسع هو **"العالم الاسلامي"**، وتقاليد الكتابة عن الاسلام تترك الانطباع بوجود كيان سياسي ذو وحدة وتماسك يشكل العرب مصدراً اساس لتاريخيه. وفي نظر المختصين بالشرق الاسلامي فإن التأثير الديني المفترض على السلطة والافراد يشكل السبب الرئيس لاعتبار الاسلام المحدد الرئيسي لهوية شعوب مناطق متعددة.

هذه الفكرة التي ذهب اغلب الدارسين الغربيين الى تأكيدها، تسوغ خياراً منهجيا يعطل كل تحليل لهوية مجتمعات المنطقة. كما أن "مركزية عربية" الشائعة في الثقافة الأوروبية، تشكل تشويشا على استخدام مصلحي العالم الاسلامي، والحضارة "العربية الاسلامية" وتستتبع نمطين من الرؤية التاريخية المبتورة، (التقليل من مساهمة المكونات الاسلامية غير العربية في الحضارة الاسلامية/ تهميش التاريخ العربي قبل الاسلام).

ان خيار "العالم الاسلامي" كمعيار دلالي ليس أكثر فائدة من خياري "الشرق الأوسط" و"الشرق الأدنى"، على اعتبار انه يظل اسير مصالح جيوسياسية غربية.

سبر غور الحضارات المتعاقبة على الشرق الأوسط.

رسم حدود ثقافية وإدارية وعسكرية من طرف سلطة محلية ظل أم نادر التحقق في المنطقة، وخضعت المنطقة تاريخيا لأنماط من الهيمنة شبيهة للهيمنة الغربية في القرن الماضي، سببت تراتب في الثقافات والاديان. وهو امر ظل غائبا في الاعمال البحثية بسبب دمجها في ثقافة الحداثة.

لقد اعترف علماء الاثار في قواميسهم بالتعقد الحضاري للمنطقة، نظراً لتنوعها في ما قبل الاسلام (شرق ادنى اغريقي/روماني..) كما صاحب هذا التنوع العصر الاسلامي حيث ظهر اكثر من تاريخ اسلامي (عربي/ تركي/ فارسي...). لقد ظلت المنطقة ملتقى تاريخي وجغرافي يتصدع ظاهريا بحملات الغزاة الذين ينصبون حكام جدد ينون حضارات جديدة شكليا في ظل استمرارية في الحياة الاجتماعية.

لم يكتب لمنطقة الشرق الأدنى ان تحكم من طرف أهلها منذ زمن غابر إلى حالة نادرة أتسمت بالضعف، دون ان يعني ذلك ان المنطقة تجمع متنافر من الشعوب فعناصر الاستمرارية متوفرة بوفرة، إضافة الى

التشابه الكبير في اللغات وغيرها من اوجه الشبه بين مكونات المنطقة، ليبقى السؤال عن التغيرات الحقيقية التي احداثها الاسلام في المنطقة.

الفصل الثاني: مناهج إدراك الشرق الأدنى وتاريخه

بناء على ما سبق ذكره خلال الفصل الماضي، توضح ان الشرق الأدنى أو الاوسط لم يتوفر له تقاليد في كتابة التاريخ على غرار النموذج القومي الأوروبي، ما نتج عنه تصور مشوشا للمنطقة.

محددات نظام الإدراك الأوروبي:

الفكرة أساسية مفادها أن الأوروبيين حصروا منطقة الشرق الأدنى في "الإسلام" والذي اعتبروه دائما خطرا لطالما شكل تهديدا خطيرا على مصالحهم منذ القدم. هذه المقاربة التي وضعتها الثقافة الأوروبية الحديثة للشرق تشكلت بعوامل شتى من الفضول العلمي إلى الحماس الاستعماري مرورا بالدعوة الرومنسية الأوروبية "العودة إلى الجذور" أي الشرق مهد الحضارة.

تنوعت الكتابات الأدبية الاوروبية على المنطقة بين ثلاث اصناف اساسية (الرحلة إلى الشرق، والابحاث في التاريخ العالمي وموقع الشرق منه، والتاريخ الديبلوماسي) غير انها تظافر لترسم صورة جامدة عن المنطقة. فجمدت الأولى تعريف الهوية في احادية دينية وظلت تهتم بقضية الاكثرية والاقليات الدينية. وكرد على هذا النوع من الكتابات برزع في الوقت الراهن كتابات تركز على الحركات الاسلامية الجهادية كتعبير عن الثقافة الاسلامية المعرضة لصدمة الحداثة والمدافعة عن قيمها.

لقد ظل ينظر إلى الشرق باعتباره الأرضية المميزة التي تتجسد فيها "الروح السامية" من خلال هيمنة الدين الإسلامي المتعصب (حسب رينان) حيث خلص هذا الأخير إلى الدعوة لإزالة الإسلام من اجل انتصار الحضارة الأوروبية، واعتبر الإسلام هو تجسيد للوحشية والبربرية والفوضى، غير أن فرنان برودويل كان موقفه أكثر دقة وأقل انفعالا من أقوال رينان عن الساميين فهو يؤمن بإمكان توافر الإصلاح وتحدث عن الإسلام كما لو كان كائنا جماعيا وشموليا من خلال كتابه قواعد الحضارات، لكن المشكلة اليوم تكمن في فهم المحددات المناسبة لوصف هذه الوقائع ما دامت الثقافة العربية تنمو اليوم على أساس استشراق غربي متهم بإظهار الإسلام والعرب بشكل سلبي.

نظرة مجتمعات المشرق العربي الى تاريخها.

تزخر الثقافة العربية بإنتاجات ومؤلفات تاريخية كبرى غير أنها تجمدت في القرون الأخيرة منذ السيطرة التركية على المنطقة وفقدت كل اهتمام بماضيها وبمصيرها التاريخي، باستثناء ما ارتبط بظروف خاصة (كالاستعمار) وفي هذا الإطار صدرت العديد من المؤلفات لإيقاظ الوعي التاريخي العربي وإبراز التراث المشترك الخاص بالعرب، غير أن هذه التيارات لم تتمكن من تجاوز حالة الشلل في الفكر التاريخي. الذي ادى الى تحجر الذاكرة، وظلت سيرة النبوة الاسلامية مركز اهتمام الذاكرة الجماعية. الذي لم تستطيع حتى الحركة القومي العربية في مرحلتها العلمانية تجاوز هذا العنصر.

عوامل الجمود والتجزئة في الذاكرة في المجتمعات العربية لم تقتصر على سيادة سيرة النبوة، بل إنضاف إليها التناقض داخل هذه الذاكرة الدينية ذاتها، وهو ما تجلى بعد موت النبي بشان قضية الخلافة وعلى طريقة اختيار أمير المؤمنين وبروز(السنة، الشيعة) ويمكن أن تضاف انقسامات أخرى إلى تلك منها ما يتعلق بطوائف إسلامية منشقة (الدروز، العلويين والإسماعيليون).

لقد كان لقيام الدول الحديثة بعد الاستقلال تشكل ذاكرات وهويات كانت كامنة. ولم تأخد هذه الدول على عاتقها وضع خطط للبحث التاريخي كما لم تهتم بإجراء تحولات في ذاكرتها للتكيف مع الظروف الجديدة الناشئة باستثناء مصر، بل سعت فقط إلى إعادة إنتاج المعرفة ذاتها عن الإسلام أكثر من تشجيعها بحوثا عن التاريخ العربي.

وهكذا فقد شكل هذا الجمود حاجزا منيعا أمام أي تجديد في المناخ الثقافي العربي وباتت أعمال المفكرين العرب تعكس الصورة التي رسمها الغرب للشرق.

خلق دولة اسرائيل وأثره على التصورات عن الشرق الأدنى.

أثر قيام دولة اسرائيل بشكل كبير على صيغ التصورات المختلفة ونظم الادراك بخصوص المنطقة، سواء على المفاهيم المتعلقة بتحديد الايقاع الزمني أو التنظيم الجغرافي أو منهج تحديد موضوع المشاهدة التاريخية. فقد كان قيام هذا الكيان استناداً على ذاكرة جماعية يهودية دون اعتبار للانقطاع الزمني "الف عام" من غياب الجماعة اليهودية وزوال اللغة العبرية. بداية عودة صور التاريخ التوراتي في واجهة الذاكرة الجماعية الاوربية، لتصطدم زمنية التوراة بزمنية زمنية العلمانية، لتكون النتيجة تشويشا في المقولات والمفاهيم وإدراك حقائق تاريخية للمنطقة. ليظل السؤال المثار هو **هل الدين يؤسس للقومية؟**

لقد أدى قيام دولة اسرائيل كدولة دينية وعلى اسس ذاكرة دينية إلى بروز زمنية دينية، وتفسيرات دينية لا في الثقافة الأوربية وحسب، بل ساهم في بروز اديولوجيات اسلاموية وتراجع مهول للغة الدنيوية العلمانية، لتحل محلها لغة دينية صراعية.

دور العامل الاقتصادي في النظرة إلى الزمان والمكان وأجهزة السلطة.

لا يمكن تجاهل العامل الاقتصادي من العوامل التي تؤثر في تحديد نظام الايقاع الزمني والمكاني للرواية التاريخية، نظر لدوره في السيطرة على الحيز وتحديد نطاق الزمنية المعاشة. وقد ظل اقتصاد المنطقة جامدا في وضعية القرن 19، ريعيا تابعيا، رغم اكتشاف النفط. فقد ظلت الحياة الاقتصادية ريعية مسيطرة عليها من طرف الدولة ما يؤدي إلى احتكار السلطة من فئة اجتماعية معينة في الحياة السياسية.

الفصل الثالث: ماهو موضوع المشاهدة التاريخية في الشرق الأدنى؟

انطلاقا مما سبق (الفصلين 1 و2) يمكن تفسير صعوبة اختيار المقولات المفهومية لفهم مجتمعات المنطقة، (هل هو الشعب أم القومية، الطائفية، الأقلية..)، فهل يجب كتابة تاريخ قومي موحد أم تاريخ متعدد للمكونات القومية في المنطقة. وهل يجوز فصل العربي والإسلامي هوياتياً؟ هذه التساؤلات تحتم تفحص المقولات المفهومية بمنهج نقدي لفهم تاريخ المنطقة وحاضرها.

مدى ملاءمة تطبيق المفاهيم الاثنية والانتروبولوجية على مجتمعات الشرق الأدنى.

يرى اغلبية الدارسين للشرق الأوسط في الاسلام واقعا اجتماعيا كليا، والعنصر المحدد لهوية المجتمع وبنيته، في اسر واضح للمقاربة التقليدية المتعلقة بمشاهدة المجتمعات القديمة، رغم توسع منظورات الاثنولوجيا وتقاربها من السوسيولوجيا واهمال مفهوم "الواقع الاجتماعي الكلي".

حيث أن إشكالات المنطقة تبقى قابعة في جمودها بالانغلاق على المحدد الديني الذي يسيطر على أغلب التحليلات، فالمقاربة التقليدية تعتبر الإسلام محدد في نطاق جماعة موحدة الهوية ذات خصائص عرقية واضحة، وهو على العكس من ذلك إنه ديانة كونية شاملة للطوائف والاثنيات كما انه لم يلغ الحدود اللغوية والجغرافية.

ان سيادة مصطلح "العالم الاسلامي" كمصطلح تعميمي شمولي يرتكز على تصنيفات جامدة، تظهر الشرق الأدنى كمجموعات بشرية مرغمة على التعايش في بؤس وشقاء.

ثنائية الاكثرية_ الاقلية، أو محاولة تربيع الدائرة.

قدم الانتروبولجيا الدينية المنطقة كمركز للعالم الإسلامي "ثنائي" تشكل السنة أكثرية من جهة ومن جهة أخرى مجموع الفئات الفرعية والاثنية التي تشكل اقليات، فهذه المنطقة تحمل من الاختلاف في الديانات والعرق واللغة وحتى التقاليد والعادات والاثنيات.

لقد سيطر القلق القديم على الاقليات في المنطقة (نظراً لاهميتها في الرهانات الجيوسياسية) على أغلب الدراسات، وهو يؤدي برفقة غلبة الطابع الاسلامي إلى انحصار التحليل في إشكالية اساسية تتجسد في التناقض بين الاغلبية العربية السنية والاقليات الاثنية والدينية الاخرى. ما يعيد مرة أخرى التساؤل حول الشرق الادنى هل هو عربي أم هو اسلامي يهودي؟

إن القول بالاسلام "السني" كمحدد هوياتي وحيد لمجتمعات المنطقة، يطرح اشكال اعتبار الامازيغ والاكراد أقليات ومعظمهم مسلمون سنة. وهل اللغة وحدها في هذه الحالة تستطيع شل منظومة القيم الاسلامية؟ نفس الامر ينطبق على المذاهب الاسلامية الاخرى "الشيعة" التي توصف بالاقليات رغم مشاطرتها الاغلبية السنية نفس القيم الاسلامية.

ان مفهوم المجتمع التعددي بالذات، غير البدائي وغير الصناعي في أن، لم يتحول الى عنصر لفهم طبيعة مجتمعات المنطقة. وألغاه الاعتقاد بأولية الثنائية التي لا تقبل المصالحة بين اغلبية تعتبر متجانسة وأقليات متعددة.

ضرورة الفصل بين التاريخ الدنيوي والتاريخ الديني.

اضافة الى إشكال التعددية تزيد الخلط بين التاريخ الاسلامي وتاريخ المنطقة والرؤية الوحيدة إلى دين الإسلام الامر ضبابية. حيث انه ليس هناك إسلام واحد بل هناك أنواع من الإسلام تأثر بالمجتمعات وأثرت فيه بسبب عادات وتقاليد كل مجتمع على حدة، والأمر سائر على باقي الديانات الأخرى كالبوذية والمسيحية...الخ. حيث إذا انكب الباحثين العرب أو الأوروبيين على دراسة تطور الديانة الإسلامية ومؤسساتها في ظل استبعاد للإسلام الهندي الذي استطاع التعايش مع الأكثرية البوذية والماليزي والاندنوسي والإفريقي بل هم يعالجون الإسلام بصورة عامة ويرجعون الى تاريخ بدايته دون التعمق في مراحله الأخرى الممتدة إلى حاضرنا.

ان التمييز بين "المدينة الاسلامية الفاضلة" القائمة على روابط الايمان، وبين حقيقة المجتمعات المتمايزة بالتاريخ والجغرافيا والاصول الاثنية، أمر نادر وحين يستحضر فلتأكيد المحدد الديني للهوية لا التقليل منه. وهو ما

يستدعي الفصل الضروري للتاريخ الدنيوي على الديني واعادة اكتشاف المجتمعات بخصوصياتها وميزاتها وتاريخها خارج النظر اليها كمجتمع كلي لازمني، ومنمط ومحدد الهوية بالدين الاسلامي.

تناول الاسلام كديانة لا كحقيقة اجتماعية كلية، يمكن ان يظهر الحقائق التاريخية وتبين واقعاً اخر، وتنفتح النظرة المقارنة الثرية على الديانات الاخرى والمجتمعات الاخرى. ما سيبرز مشكلة ملائمة المناقشات التي لاتنظر الى مصير المنطقة وتحديثه إلا من بوابة "الصحوة الاسلامية"، ونهوض الحركات الاسلاموية التي تكن حقداً للعلمنة، باعتبارها ضياع للهوية وعدوانا ثقافيا على المسلمين.

ان افتخار الاسلاميون بانجازهم للقطيعة مع الثقافة الغربية، هي في الحقيقة ادامة للتبعية اكثر منه استقلال، فالعلمانية ليست ميزة خاصة بالشعوب الغربية كما يعتقدون، بل هي صيغة من تنظيم السلطة وإعادة تنظيم الروابط الاجتماعية، ولدت في الغرب من الناحية التاريخية في اطار البحث عن حل عملي لمعضلة الحروب الدينية الاهلية.

الفصل الرابع: اختيار الهوية العربية كمادة تاريخية.

الهوية العربية وتطورها عبر التاريخ.

منذ القدم كانت الهوية العربية غير محددة تماما، حيث كان العرب عبارة عن مجموعة قبائل رحل تعيش على الرعي، ذات بنى قبلية وبدوية. وهذا ما يفسر عدم قدرتهم على بناء مؤسسات سياسية ثابتة ولا إقامة دولة قومية واضحة الحدود. وقد كان العرب متنوعين ثقافيا متأثرين بما حولهم من باقي الثقافات المحيطة بهم كالبزنطيين والامازيغ والفرس.

ظلت منطقة الشرق الأوسط ذات أهمية استراتيجية منذ القدم وكانت محل صراع المماليك عليها وهذا ما يفسر كونها معقل للتيارات والمذاهب. اضافة الى التراكم الهائل للتأثيرات الثقافية الدينية قبل الاسلام وبعده من طرف الشعوب المحيطة بالمشرق العربي. في الوقت الذي لعبت فيهه اللغة العربية دوراً مماثلا لدور اللغة اللاتنية في المسيحية الرومانية.

ان عرب القرن العشرين تكون من فسيفساء من الثقافات والاثنيات، حيث بعد الاستعمار لم تستطع هذه المجتمعات تكوين هوية واحدة مشتركة ولا إنشاء قومية واحدة، بل واصبحت تتخبط في ديكتاتورية السلطة

الحاكمة. وحقيقة عند الحديث عن هوية عربية واحدة يجب التكلم عن اللغة المشتركة وليس الدين, لأنه قد مرت عدة أديان على المنطقة وكانت اللغة العربية هي التي لا تتغير.

تعقيدات نهاية الاستعمار في العالم العربي.

تحليل الظاهرة الاستعمارية (وقوعا وزوالا) امر معقد بالنظر الى خضوع المنطقة لتأثير السيطرة الاوروبية وكذا السيطرة العثمانية، ما جعل مجتمعاتها تعيش صدمات ثقافية، ساهمت الى جانب ما عنصري النفط والهجرات اليهودية في عدم استقرار المنطقة.

الدور العائد لكل من العوامل الداخلية والخارجية.

في الغالب ما يذهب البعض من الدارسين الى اعتبار عناصر التنوع المجودة في المجتمعات "العربية" عنصر اساس لتفسير الوضع الفوضوي واللامستقر. في المقابل يحصر الاخرون هذا اللاستقرار في للعوامل الخاريجية، في قصور واضح على فهم تطور المنطقة.

كما ساهم عنصر ظهور النظام الشيوعي الذي اصبح يقوم على أساس الايخاء الطبقي ولو بين المستعمِر والمستعمَر, حيث ستزيد الماركسية من تشتت النخب المكونة للمجتمعات العربية.

الابعاد المحدودة للنهضة العربية.

كان من العادي ان تعيش المجتمعات العربية، في فجر الاستقلال، في وضع غير مستقر موشوم بالخلافات الداخلية والعربية – العربية، نظراً لبقاء نفس الهياكل التقليدية التي لم يلامسها التصنيع والتحديث، على الرغم من بروز مجموعة من النخب الاصلاحية المتشبعة بأفكار سياسية اوروبية. لذلك ظلت جاذبية افكارهم تصطدم بسلبية مصدرها المشوم بالخصومة والصراع.

المشرق العربي: عالم في طور التفكك، أم عالم في طور البناء.

مسألة التفكك والبناء تثير الكثير من التعقيدات، حيث احتارت الدول العربية بين توحيد الهوية والخصوصية لكل منطقة، ومازاد ذلك ظهور النفط في بعض المناطق دون الاخرى. هذا النفط الذي سمح للغرب مرة اخرى بالتدخل في المنطقة الشيء الذي أجج الكثير من الصراعات فيها، وأيضا قد أدى النفط الى تدمير الركائز الانتاجية للمشرق العربي والتي سبق ان اضعفتها الصناعة الغربية.

بالتالي فباستمرار انتاج النفط يعني استمرار سيادة الغرب وفشل مساعي التضامن العربي وكذلك توالي الهزائم امام اسرائيل.

الفصل الخامس: تنظيم العرض وتحقيبه.

الغليان "الثوري" وعوامل تهدئته.

ان التحقيب المعتد في الأجزاء الثالثة اللاحقة والمخصصة للسرد التاريخي هو استجابة لمحاولة تحديد حالات التواصل والانقطاع في تعاقب الاحداث. فخصص الجزء الثاني للمرحلة الممتدة بين 1956 و1975، للتوقف عند حالات الغليان الثوري في المنطقة التي جعلت المنطقة تبدو في حالة نهوض(1952-1967)، ثم مراحل اخرى تميزت خلالها المرحلة باستقرار مدهش في الانظمة السياسية، بعد سلسلة الاضطرابات، ثم بدأ هذا الغليان المتضخم ينحسر سريعا في فترة (1948-1970)، تاركا المجال لتعقل سياسي لافت. وفي فترة السبعينيات شهدت المنطقة سلسلة من محاولات الاغتيالات.

النفط.

ساهم الإرتفاع القياسي في أسعار النفط ما بين 1973 و-1982 إلى تغيرات إقتصادية والى اساس للتوافق الاجتماعي الضمني، خصوصا بعد توقيع مجموعة من الإتفاقيات بين دول النفط الغنية " بلدان الخليج " وبين البلدان التي تلقت صدمة الهزيمة العسكرية على يد إسرائيل عام 1967 " سوريا مصر أردن ". بحصولها على اعانات مالية لوجستيكية خصوصا في حرب 1967 وحرب 1973 والتي رسخت بداية التعاون العربي ضد إسرائيل.

كما ازداد دور البلدان النفطية الغنية في القيام بحملات إعلامية وترويجية لدعم الشعوب العربية بالإنتماء والتشبث بالهوية الإسلامية مع التصدي لكل الاديولوجيات الإشتراكية لمنع إنتشار الفكر الشيوعي الماركسي كما يقول الكاتب "طرد الغزاة الملحدين" وذلك كله بتوجيه وتخطيط أمريكي سابق من أجل السيطرة على المنطقة .

زوال الاتحاد السوفياتي.

اضافة الى عوامل من حجم النفط والثورة الايرانية والحرب العراقية الايرانية، ينضاف فقدان التأثير السوفياتي في المنطقة، الذي كان "يزعزع" المنطقة عبر الانخراط مع الدول "التقدمية" في الصراع ضد اسرائيل. وهذا التراجع تمثل في بدايت السبعينات لفائدة الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن بين الأسباب التي تفسر تراجع الإتحاد السوفياتي، ابرزها سياسة التعايش السلمي اواخر الستينات، والصراع السوفياتي الصيني مع تراجع تبعية الدول المصدرة للنفط سيما على الصعيد الإقتصادي. ثم الحرب في

أفغانستان التي تعتبر من بين الأسباب المباشرة في سقوط المعسكر الإشتراكي وظهور نظام عالمي جديد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية.

توكيد التفوق العسكري الإسرائيلي

يساهم نمو القوة العسكرية الاسرائيلية في إستقرار الأنظمة السياسية العربية، إلى جانب العوامل السابقة. فتحول الجيش الاسرائيلي الى قوة مهيمنة بفضل رسوخ علاقاتها مع اكبر قوة عسكرية في العالم (و م أ) وامتلاكها السلاح النووي، الامر الذي جعل البلدان المحيطة بإسرائيل لم تعد تفكر في مهاجمتها. كما تعزز هذا التحالف العسكري (الاسرائيلي-الامريكي) خصوصا في عهد الرئيس ريجان والتنسيق في مسائل عدة تهم الأمن القومي لكلا البلدين كقضايا الإرهاب والوجود السوفياتي والإيراني في الشرق الأوسط، ففي سنة 1981 دمرت إسرائيل المفاعل النووية الذي انشأته فرنسا في العراق لأغراض مدنية، كما اجتاحت سنة 1982 بيروت التي كانت تستضيف منظمة التحرير الفلسطينية. وظلت لبنان على أنها ساحة للمواجهات غير المباشرة بين إسرائيل وبعض الدول المجاورة ك(سورية مثلا).

تكاثر الصراعات والحروب بين العرب وحلول الهيمنة الامريكية في المشرق العربي.

لقد حلت الهيمنة الأمريكية على المنطقة على مرحلتين (الجزءين الثالث والرابع)، على الرغم من النفوذ السوفياتي وتأثير حركات المقاومة الفلسطينية، فقد تفاقمت الصراعات العربية-العربية، والتي كانت لبنان ساحة مفضلة لها.

الحرب اللبنانية، السلام الاسرائيلي – المصري. الثورة الايرانية والحرب العراقية الايرانية (1990-1975)

يتناول مطلع الجزء الثالث"الفوضى الدموية" في لبنان ابتداءاً من 1975، هذا البلد الذي يدين في وجوده الى توازنات دقيقة بين القوى الغربية والأقطار العربية. عاش فوضى لا تعود الى مشكلاته الداخلية بقدر ما تعود الى الخلافات العربية، التي غذتها اتفاقيات السلام الاسرائيلية المصرية. من جهة اخرى شهدت الظرفية قيام الثورة الايرانية ذات المرجعية الدينية، أدت تعقيد العلاقات العربية – العربية، بشكل اضاف خلاف اخر حول الموقف من الثورة الايرانية، خاصة بعد الحرب العراقية الايرانية.

حرب الخليج، أوهام السلام واحتلال العراق (1991-2003).

ويتناول الجزء الرابع تحليل الترابط والتشابك بين الأحداث المبعثرة والمتباعدة جغرافيا. وموضوع أساس هو"أوهام السلام". اذ انه بعد نهاية الحرب الباردة وانتصار القواة "الحليفة" في حرب الخليج 1991، ثم مصافحة "طنانة" بين رئيس منظمة التحرير الفلسطنية وقادة اسرائيل، ما أثر على الرأي العام وأوهمته بأنه يعيش لحظات حاسمة ستنعم بعدها المنطقة بالسلام بعد سلسلة الحروب.

في ظل هذه الصفحة الجديدة الموهومة والتي صارت في غياب الاتحاد السوفياتي الداعم لجبهة عربية معادية للغرب، شهدة المنطقة صدمة احتلال العراق من طرف تحالف تقوده امريكا، بعد اجتياحه للكويت، لتزول بذلك اخر رموز "الثورة العربية" من جهة، ومن جهة تورى الاهتمام بمنظمة التحرير الفلسطينية إلى ان برزت قيادة جديدة داخل الاراضي الفلسطينية.

على سبيل التعليق:

هذا الجزء هو من أهم أجزاء الكتاب، على اعتبار أنه مفتاح اساسي لفهم الأحداث التي سيأتي على سردها في ما تبقى من الكتاب، وعلى اعتبار ان المؤلف سعى من خلاله إلى الدفاع على اطروحته ووجهة نظره، خاصة في ما يتعلق باعتماده مفهوم "المشرق العربي"، وكذا اعتبار الهوية العربية كموضوع للمشاهدة.

وعلى سبيل التعليق على مجموعة من القضايا الواردة في هذا الجزء، نسجل بإيجاب طموح الكاتب لتأسيس منظومة فكرية عربية للإدراك لفهم الانحطاط الذي تعيشه المنطقة. وكذا وعيه بعيوب وخلفيات الكثير من المقولات والمفاهيم الجيوسياسية التي تسعى الى فهم المنطقة، والانتباه الى خلفياتها غير البريئة والمحكومة بأدوات البحث التي طورتها الثقافة الغربية

غير انه بالمقابل يمكن للمرء أن يستغرب من ادراج المؤلف لمفهوم "العالم الإسلامي" في ذات الخانة، وإلحاحه على اقصاء العنصر الديني "الاسلامي" من عناصر ادراك المنطقة، فإذا كان التنبيه إلى خطورة حصر المنطقة في البعد الإسلامي امر مفهوم وله قسطه من الصوابية، فإن ابعاد هذا العنصر بشكل كامل امر غير منطقي لما للإسلام من دور هام في تشكل الأمة في المنطقة ومدركاتها الجماعية.

اعتبار "العروبة" كهوية للمنطقة، وكموضوع للمشاهدة التاريخية في المنطقة، امر يثير الكثير من الجدال، خاصة بالعودة الى المفهوم الذي حدده المؤلف للعروبة، وإسنادها على عنصر اللغة العربية، وإبعاد الدين الاسلامي منها، على الرغم ان النصف المغربي من المنطقة "اي منطقة شمال افريقيا" لا علاقة لها بالهوية العروبية إذا ابعد

الاسلام من عناصرها، بل أن اجزاء من مشرقها كذلك سيصعب اعتبارها ضمن الهوية العروبية بابعاد الاسلام من مكوناتها.

ان مبرر اقصاء وتهميش تاريخ العرب ما قبل الاسلام، مبرر يمكن الرد عليه، على اعتبار ان العرب في تلك الحقب، كانت تعيش مرحلة العشائرية الضيقة، ولم تبلغ مرحلة التكوين المجتمعي، التي بلغتها المنطقة فقط بمجيئ الاسلام.

الجزء الثاني: من لغليان الثوري إلى الفورة النفطية 1956- 1975.

الطالب الباحث: حمدي أتراس

الفصل السادس: من تأميم قناة السويس إلى وفاة جمال عبد الناصر: 1956-1970.

إن ردة فعل الشعوب على وفاة زعمائها تُقدم للتاريخ لحظات من حقيقة ثمينة وإن تكن جزئية، وإذا كانت شعوب الشرق خلافاً لشعوب الغرب محرومة من اللغة السياسية الحديثة والمنظمة تعابيرها على نحو دقيق وصارم، فالأولى بنا والحال هذه أن نستمع إلى ما تنطق به تلك اللحظات المميزة التي تتعطل فيها السلطة المطلقة فيعبر المجتمع عن ذاته بعنف السيل المتدفق ويفصح في أوقات عابرة عن مكنون مشاعره المكبوتة طوال سنوات عديدة من الصمت.

يدلل المؤلف على هذا المزعم برجُلين تركا أثراً عميقاً في مصير المشرق العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين، كان لوفاتهما صدىً متميز في الشارع العربي هما جمال عبد الناصر وأنور السادات. ويبدو اقتناعه واضحاً بأن إسراف الشعب العربي في التألم على وفاة عبد الناصر راجع إلى كونه فقد فيه المعبر الساحر عن المشاعر الجماعية، والترجمان الذي أبان طيلة 17 عاماً من خلال منطوق خطاباته عن بعض الصبوات العميقة للمجتمع، فكان وكأنه لسانها الناطق الذي يُفصح عن كبت الحرية والكرامة؛ على خلاف السادات الذي وإن كان خطابه شعبي النبرة إلا أنه كان يُؤثر الكلام أمام هيئات الوجاهة السياسية ومندوبي الصحافة الغربية.

ومع ذلك فإن الرجلين رمزان لمرحلتين متناقضتين في الظاهر ومتكاملتين في الواقع. فكيف تم الانتقال بسرعة مُذهلة من الناصرية إلى الساداتية؟ يُقرر جورج قرم أن جمال عبد الناصر هو امتداد للتيار الإصلاحي العثماني الذي مثله محمد علي ذلك النائب السلطاني الذي أراد أن ينقل مصر المتناومة والمنزوفة يومذاك إلى قلب القرن 19، ومن هذا النبع شرب في مستهل القرن العشرين أوائل العسكريين القوميين العرب الذين فكوا هم أيضاً التضامن الإسلامي مع أبناء دينهم الأتراك ليهدهدوا حلم الوحدة العربية.

وعبد الناصر على الرغم من الخصوصيات التي تميزه هو نتاج لذلك التيار، فالتاريخ المضطرب للمشرق العربي هو في الحقيقة انعكاس للصراع الخفي بين إسلام البحر الأبيض المتوسط وإسلام آسيا القارية، وأنور السادات يُعد أحد ضحايا هذا الصراع الخفي؛ إذ تعذر عليه أن يتأكد من كونه فلاحاً من مصر القارية، أم من أهل التمدين الحديث فدفع حياته ثمناً لذلك.

كان هدف الرئيس جمال عبد الناصر إخراج مصر من تأخرهاوإرجاع الحيوية الاقتصادية إليها من خلال الزج بها على قدم المساواة في شبكة التقدم والازدهار العائدة إلى العالم الصناعي؛ وكانت الغاية من تأميم قناة السويس هي تمويل عملية تحديث مصر ببناء سد كبير على مجرى النيل في أسوان لإنتاج الطاقة اللازمة للتصنيع وري مئات ملايين الهكتارات قصد تأمين وسائل البقاء لشعب يعيش حالة تزايد سكاني متفاقم؛ بيد أنه لم يكن بحكمة محمد علي الذي تحاشى كارثة عسكرية وانكفأ على مصر رضوخاً لإرادة القوى العظمى في مقابل الاعتراف بسلالته، ليحين دور خلفه الساعين وراء الحداثة من أجل ترك مهمة تطوير مصر لأوربا ونمطها الاستعماري.

وإذا كان عبد الناصر على غرار محمد علي قد عبر عن إرادة جامحة نحو الاستقلال السياسي والتصنيع وتحسين مستوى المعيشة إلا أن التيارات الفلسفية لخطابه أكثر هشاشة من أن تؤلف هيكلاً عقائدياً لأن ثمة ميلاً إلى الامتناع عن الاختيار الفعلي بين الاشتراكية بكل نتائجها وتأكيد طوباوي سيما بالنسة إلى فئة فقيرة ومسحوقة لرأسمالية غير استغلالية وتأكيد لضرورة طريق ثالث بين الرأسمالية والاشتراكية. أما سياسة "الانفتاح" الاقتصادي التي انتهجها السادات فهي ليست سوى نسخة جديدة من سياسة سعيد باشا وإسماعيل الخديوي، التي أباحت غزو الرساميل والثقافات الغربية للبلاد من دون تقييد. فهذا الوصف قابل للانطباق على المرحلة الساداتية.

عموماً فإن الانزلاق السياسي للمشرق العربي من موقع معاداة الامبريالية والنزوع إلى الاشتراكية، إلى مواقع مهادنة العالم الغربي الرأسمالي بل التعاطف العلني معه أحياناً، وهو الانزلاق الجلي في مصر، جاء موازاةً مع تعاظم الثروة النفطية وانتشار الموجة السلفية المعادية للاتحاد السوفيتي ما يعني أن هذا الانزلاق تخطى دائرة مصر إلى دائرة أكثر اتساماً بالتنافر وعدم الاستقرار بفعل التعددية الدينية والعرقية، وهي تعددية زادتها المذاهب الأيديولوجية المختلفة بأسباب التنابذ والتناحر في جو من الصراع بين التطلعات الأيديولوجيية الثورية الراديكالية لبعض الحركات الفلسطينية أو اللبنانية، وبين النزعة الايديولوجية المحافظة لممالك النفط التي تعاظم نفوذها، وهو ما ساهم في خلق وضع يلفه التعقيد والتداخل السياسي والاجتماعي

الفصل السابع: من قمة الخرطوم إلى حرب تشرين أكتوبر 1967–1993 : تغير الديكور

استهل المؤلف هذا الفصل بفكرة انتظمت مُختلف جوانبه التحليلية،ومُؤداها أن السادات والذي تزامن وصوله للسلطة مع بداية تراجع النفوذ السوفيتي في المنطقة وتنامي الدور الإسلامي قد جسد الاضطراب الذي شهده المشرق العربي؛ لذلك كان عهده عبارة عن فاصل زمني واستراحة تم فيها تغيير مشهد هذه المنطقة الاستراتيجية وسط فوضى عارمة بعد وفاة جمال عبد الناصر بالموازاة مع تعاظم دور الممالك النفطية.

شكلت هذه الفترة نقطة تحول تفصل بين مرحلتين متداخلتين، حولتا المنطقة من ساحة للتقدم الاقتصادي والثورة التقدمية التحديثية ومعاداة الاستعمار إلى ساحة للتوتر والتناقض والعنف الإرهابي والسلفية الدينية والغنى الفاحش في مقابل الفقر المدقع؛ وهو ما لا يُمكن فهمه دون الأخذ بعين الاعتبار بزوغ العالم النفطي العربي في أواسط الستينات، واحتلاله مركز الصدارة في المنطقة؛ إضافة إلى كون هزيمة 1967 شكلت هزيمة لليسار العربي في مواجهة القوى المحافظة والسعودية على الخصوص.

تجسد ذلك في مؤتمر ملوك الدول العربية ورؤسائها في الخرطوم سنة 1967 حيث تم تقرير عدم استخدام النفط سلاحاً مباشراً ضد الدول الغربية الداعمة لإسرائيل، ما قضى على أمل العرب في إجبار هذه الأخيرة على الخروج من الأراضي المحتلة خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي لم يضغط حينها في اتجاه إنصاف هؤلاء. فسياسة التعايش السلمي كانت تُقدم له حينها فوائد اقتصادية هو في أمس الحاجة إليها.

إذن خلقت قمة الخرطوم مأزقاً وخيماً عرف السادات كيف يستخلص عبره. فقد تخلص من السوفييت أولاً، ثم أدخل مصر في شبكة المصالح الأمريكية ثانياً، وذهب للإسرائيليين ليتحدث وإياهم مباشرةً؛ فسياسة نعم للغرب لا لإسرائيل هي سياسة أثبتت فشلها كل الأحداث في المنطقة. من هنا بدأ توظيف النفط لا كسلاح ضد إسرائيل والغرب ولكن كنظام للضمان الاجتماعي تقدم من خلاله الدول النفطية مساعدات لدول "المواجهة" التي تعرضت للاحتلال الإسرائيلي سنة 1967 لكن هذا التضامن العربي شكل في واقع الأمر سلاحاً بيد الدول النفطية لأنها مولت القسم الأعظم منه.

هكذا جسدت قمة الخرطوم النتائج الفعلية للصراع العربي الإسرائيلي ولهزيمة 1967 بتخلي عبد الناصر نهائياً عن الطاقة الثورية للقومية العربية للانكفاء على المصالح التي باتت محصورة بحكم واقع الأمور في الشأن المصري. لكن ماذا عن اليساروية ألم تشكل بديلاً صالحاً؟ في الحقيقة انساق الكثيرون مع موجة الحماسة

اليساروية التي اجتاحت العالم خلال فترة 1965-1970 فإذا بالحركات السياسية الفلسطينية تقفز أيديولوجياً من القومية ذات التلاوين الاشتراكية إلى الماركسية التقليدية ثم إلى مختلف تلاوين الماركسية اليساروية التي باتت تعتبر الاتحاد السوفيتي والأنظمة العربية امتداداً للمنظومة البورجوازية محملة إياها مسؤولية الهزيمة الماحقة أمام العدو الإسرائيلي.

بلغت هذه الموجة اليساروية أوجها بإعلان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في صيف 1970 بأن بعض مناطق المملكة الأردنية باتت "مناطق محررة " يسيطر عليها مقاتلوها، ما انتهى بالقضاء على المقاومة الفلسطينية بالأردن لتعيد بناء نفسها بلبنان من خلال تحالف يساري مع الجناح الإسلامي المحافظ قبل أن يوقف الجيش اللبناني تقدمه سنة 1976. أما في سوريا فقد فتح النظام البعثي الأبواب أمام اليساروية منذ فترة 1965-1966 وتغيب عن لقاء الخرطوم لكن سرعام ما حضر مؤتمري القاهرة والرياض سنة 1976 بغية إنهاء الاقتتال العربي بلبنان بين اليمين اليسار المتطرفين.

على العموم ظلت اليساروية توظف في العراق وسوريا لتثبيت دعائم حكم البعث ولم يُكتب لهذه الأيديولوجيا أن تمارس عملياً في غير الأردن ولبنان، وأرجح الظن أن الحركات الفلسطينية تبنت اليساروية لأنها تعيش بلا دولة أصلاً.

الفصل الثامن: صعود الطغيان النفطي الذي لا يقاوم 1945-1973.

شهدت نهاية الستينات بداية دفق عائدات نفطية في الشرق الأوسط اتخذت شكل سيل جارف يهدد باقتلاع كل ما يعترض سبيله؛ لكن هذا الطغيان كان كارثة العرب الجديدة، لأن الغرب ربط من خلاله علاقة غير متكافئة مع الشرق من جديد؛ إذ لم يكن بوسع الدول النفطية إلا أن تتحكم بوتائر الاستخراج أما في ما يخص أعمال البحث والتنقيب والنقل والتسويق فهي تابعة كلياً للشركات النفطية في البلدان الصناعية.

وبالتالي راهنت الاقتصاديات الغربية على الأرباح الفاحشة التي تحققها من جراء الاستغلال المفرط للنفط البخس الثمن في المشرق العربي. فكان لا بد من انتظار نهاية الستينات لتظهر مساوىء النمو الاقتصادي المفرط والتبذيري للغرب الذي تسبب في ضغوط تضخمية بالغة، بالموازاة مع قيام البلدان العربية بتحديد أسعار النفط من جانب واحد معيدة التوازن إلى أسعار قطاع الطاقة العالمي المتأثر بالاختلال المتزايد في التوازن على مر السنوات بين العرض والطلب جراء التسيير اللامسؤول للشركات النفطية.

وقد لعب الصراع العربي الإسرائيلي دوراً مهماً في ارتفاع الأسعار، فاحتلال إسرائيل لقناة السويس وإغلاقها رفع أسعار الشحن، فعمل حافظ الأسد على قطع خط الإمداد النفطي الذي يمتد من السعودية إلى لبنان عبر الأردن وسوريا محققا بذلك زيادة في عائدات مرور النفط من الأراضي السورية. وفي سنة 1971 أمكن للتاريخ أن يُسجل أول هزيمة لكارتيل الشركات النفطية أمام منظمة "الأوبيب" عندما عمدت هذه الأخيرة إلى رفع أسعار النفط لمصلحة منتجي الخليج العربي-الفارسي، قبل أن تقوم مجدداً برفع الأسعار من 5.11 دولار للبرميل إلى 11.65 دولاراً؛ فضلاً عن بداية تأميم الشركات البريطانية بالعراق والفرنسية في الجزائر.

هكذا ترافق تحرير الأسعار باستعادة السيادة القانونية، وقد كانت العربية السعودية هي الأبطأ إن في مجال الأسعار وإن في مجال السيادة، فعلاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية ترجع إلى لقاء روزفلت بالأمير عبد العزيز سنة 1945 والذي حصل بموجبه على توسيع الامتيازات النفطية لائتلاف " كونسورسيوم " الشركات الأمريكية العاملة في العربية السعودية.

عندما توفي الملك عبد العزيز خلفه ابنه سعود الذي اضطر إلى التنازل عن العرش لأخيه فيصل عامَ 1964 بعد أن أوصل المملكة إلى حالة يرثى لها. إلا أن استلام هذا الأخير لزمام السلطة كان بداية عهد جديد سمته البارزة هي **التحالف بين الدين والنفط**. وتضاعفت الموارد المالية للعربية السعودية 55 مرة في عهد هذا الملك الذي أصبح بعد وفاة عبد الناصر الشخصية الأولى عربياً، فبدأ مشوار تدعيم "التضامن الإسلامي" لمواجهة الشيوعية والقومية العربية وأفلحت الحركة في تأسيس نفسها على الصعيد الدولي في نهاية الستينات ومع شروع السادات في رفع لواء التدين والتضامن الإسلاميين بدأت دعائم الكومنولث الإسلامي المؤيد للغرب سياسياً تثبت في الوقت الذي كانت فيه الراديكالية العالمثالثية قيد الاختناق ونفوذ الاتحاد السوفيتي في العالم الثالث يتعرض للتراجع.

تولت السعودية مبادرة إنشاء بنك التنمية الإسلامي وتقديم المعونات السخية للأقطار الإسلامية التي تكافح السوفييت مكافحة فعالة. هكذا أخيراً أصبح الغرب يمتلك أخيراً في الشرق حزاماً أمنياً يحمي مصالحه النفطية والاستراتيجية؛ فقد شكلت السعودية والمغرب ومصر محوراً ثلاثياً دينامياً كما شكلت باكستان وإيران والأردن وعمان محوراً رباعياً آخر. لكن الخوف المرضي الذي أبداه الملك فيصل من الاتحاد السوفيتي حرم المملكة من عنصر توازن مهم على مستوى علاقاتها الدولية إذ تكونت في ذهنه أيديولوجيا مؤداها أن الصهيونية نتاج للشيوعية وأنها مؤامرة يهودية هدفها تدمير الأخلاق والأعراف للسيطرة على العالم، والحال أن الإسلام والعروبة لا

يمتان بصلة إلى هذه الأيديولوجيا؛ بل إنها في خطوطها الأساسية مستوردة من التقاليد الغربية الكبرى في معاداة السامية ومن "برتوكولات حكماء صهيون" التي أنتجتها النزعة الظلامية المسيحية في أواخر القرن 18 محملةً اليهود مسؤولية الثورة الفرنسية والروح العلماني المفسد الذي بذرت هذه الثورة بذوره.

أما أن يؤدي إنشاء إسرائيل وما ترتب عليه من مآسي للفلسطينيين إلى خلق أرض خصبة في المشرق العربي لاحتضان اللاسامية الغربية فنقطة ثانية التقى فيها الشرق والغرب وراح المشرق العربي ضحيتها لأنها قضت عليه بقصر نظر سياسي كان مصدراً للعديد من الأخطاء في اتخاذ القرارات؛ فجاءت موجة التشدد الإسلامي الذي فرضته السعودية في أواخر الستينات لتدفع بموجة معاداة السوفييت في العالم العربي إلى أوجها، كما أن استقرار سلطان هذه الأخيرة يتطلب مقومين: تدعيم الشرعية الدينية والتأييد الفعلي من قبل أكبر قوة غربية.

لذلك يُمكن القول بأن انبعاث السلفية في بلدان المشرق العربي لا يعدو كونه في الشطر الأوسع منه نتاجاً غربياً، والدليل على ذلك أن شاه إيران قاد دولته في اتجاه مماثل اقتصادياً لكن اقتصاره على الحداثة وحدها أفقده عرشه.

هكذا يُمكن فهم الجهود السعودية لتسوية القضية الفلسطينية من وراء الكواليس دون المساس بشرعيتها كقوة عربية إسلامية، ومن هنا كانت حاجتها إلى دولة فلسطينية وإلى استعادة عروبة القدس. فليس خافياً أن المملكة العربية السعودية تشعر بخطر الراديكالية وأن إنجازاتها السياسية قد تكون مهددة بالزوال ما لم يلتئم بصورة نهائية جرح النزاع العربي الإسرائيلي. لذلك رأت في السادات وكيسنجر ملجأها للإمساك بزمام المبادرة في منطقة المشرق العربي؛ لتأتي حرب 1973 مثيرة المزيد من المشكلات وفاتحة الطريق أمام المزيد من الالتباسات.

الفصل التاسع: حرب ومرحلتان: تشرين الأول/ أكتوبر 1973.

قد لا يكون ظاهر الأحداث مطابقاً ظرفياً لباطن الوقائع التي لم يستوعبها بعد الوعي السياسي، وهذا فعلاً ما حدث في المشرق العربي في بداية السبعينات. ففي سنتي 1971 و1972 ظهر السادات وكأنه شخصية باهتة وظل يُهدد بالحرب على إسرائيل في الوقت نفسه الذي قام فيه بطرد 18000 خبير عسكري سوفيتي معززاً الانطباع بأن الجيش المصري لا يزمع الانتقال إلى الهجوم في الوقت القريب، وفي سوريا كان الأسد يُنادي بسياسة "الاعتدال" لطي صفحة اليساروية المسؤولة عن العزلة العربية والدولية لسوريا.

أما في العراق حيث رسخ الحزب البعثي حكمه فرفض قرار مجلس الأمن رقم 242 الذي يقضي بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة بدون أن يأتي على ذكر الوجود الفلسطيني. هكذا كان الانطباع الذي ساد خلال سنتي 1971 و1972 بأن العرب يبحثون قانطين عن السلام وأن اليساروية تعيش لحظة احتضار، وأن المشرق العربي يقترب بسرعة من الغرب وأن هذا الأخير يرفض نظراً لعدم قبوله الضغط على الاحتلال الإسرائيلي، ولا شك في أن هذا الركود كان خطيراً على شرعية الأنظمة العربية، ما يفسر قبول السادات للوحدة مع ليبيا من الناحية المبدئية حتى تُحسب له "محاولة" تحقيق الحلم الوحدوي وأنه لم يشُذ عن المثل الأعلى السياسي الذي يسود المجتمع العربي منذ مستهل القرن 20.

بيد أن فشل التجارب الوحدوية بين سوريا ومصر (1958-1961) والعراق وسوريا في 1963، ثم فشل الوحدة الليبية المصرية، كلها وقائع جعلت الرأي العام العربي يُدرك أن المثل الأعلى الوحدوي إن هو إلا ذريعة بين أيدي قياصرة يعوزهم سند الشعبية والشرعية للقيام بحركات سياسية ينتزعون بها تصفيق الجماهير. فكانت بداية السبعينات فترة وقف فيها المشرق العربي على حافة الانفجار خصوصاً وأن العرب ظهروا بمظهر الركاكة والضعف أمام قوة الجيش الإسرائيلي الفائقة التي كانت ستهدد ما تبقى من نفوذ الاتحاد السوفيتي في المنطقة في حال ما إذا خاض العرب معركة خاسرة ثالثة.

في الحقيقة كان قرار حرب تشرين الأول أكتوبر 1973 نتيجة منطقية للمأزق الذي كانت تتخبط فيه البلدان العربية؛ فجاء القرار في سياق امتداد الوضع الناشئ عن قمة الخرطوم التي وضعت العرب في مأزق قبول الغرب ورفض إسرائيل، ولهذا بدأت فكرة تطبيع وجود إسرائيل تشق طريقها داخل مجموعة بلدان المنطقة منذ 1967. لكن كان ذلك يتطلب استعادة الأراضي المحتلة وهو ما يستدعي تحريك الغرب، الشيء الذي لا يُمكن أن يحدث من دون خلق وضع مأزوم يستدعي القيام بعمليات عسكرية يدعمها السوفييت لكي يتحرك الغربيون.

ولقد أفاد العرب من هزيمة 1967 فوظفوا وسائل الإعلام لترتكز على خلفية علمية تسمح بشرح القضية الفلسطينية للرأي العام الغربي اعتماداً على المعطيات والأرقام؛ فتحولت بيروت إلى مركز للإعلام عن القضية الفلسطينية؛ كما كانت الحرب ذات طابع محدود ولم يصدر أي تصريح عربي يُشيد بصداقة الاتحاد السوفيتي وهي إشارات أرسلت للغرب فضلاً عن إشارة من نوع آخر: النفط.

كان على الغرب أن يفهم المغزى من حظر النفط عام 1973 دون أن يتضرر منه، وهذا ما حصل فعلاً. فالسعودية أفهمت "كونسورسيوم" ضرورة الاستعداد لمواجهة ظروف صعبة فقامت هذه الأخيرة برفع الإنتاج

بمعدل % 36.4 خلال 9 أشهر الأولى من سنة 1973 قبل أن ينخفض ب %19.5 بين الفصلين 3 و4 من نفس السنة وهو ما يعني أن تخفيض الإنتاج السعودي نتيجة للحظر لم يتجاوز إعادته إلى معدله الطبيعي. كما أن الحظر كان جزئياً من جهة ولم يُطبق على جميع الدول النفطية من جهة ثانية. ثم إن التصاعد اللولبي لأسعار النفط وازاه قيام كيسنجر بالاستعداد لتشغيل الوكالة الدولية للطاقة رداً على منظمة الأوبيب.

هكذا أصبح البترول كارثة سياسية على العرب و**مرة أخرى لعبت قناة السويس دور الصاعق المفجر لأحداث اقتصادية بالغة الأهمية في تاريخ القرن العشرين** فكان قرار الحرب يهدف إلى السيطرة على الضفة الشرقية من القناة بعد استعادتها والواقع أن اختلاف الألوان الأيديولوجية لجميع الأطراف العربية المشاركة جعل الالتباس يكتنفها سواء على مستوى الأحداث أم على مستوى تطورها العسكري والسياسي الخاص. فالانتصار الميداني للجيوش العربية كان حاسماً في بداية المعارك ومع ذلك استغلت إسرائيل الجسر الجوي الذي أمدتها من خلاله الولايات المتحدة بأسلحة نوعية ابتداءً من اليوم الثاني للمواجهة، فضربت بعرض الحائط قرار وقف إطلاق النار الصادر عن مجلس الأمن في 22 أكتوبر 1973 ولم تتوقف إلا عند مشارف مدينة السويس مُستثمرة ضعف الجيوش العربية في التعامل مع تعقيدات الحرب المتحركة، لأن مثل هذا الموقع سيُدخلها في المفاوضات بورقة جديدة تتيح لها الغلو في المساومة.

عموماً اكتسبت المنطقة في خضم هذه التحولات أهمية اقتصادية واستراتيجية كبرى؛ فانبعث الحلم الأمريكي بجمع إسرائيل وجيرانها في تحالف عسكري ضد الاتحاد السوفيتي وهو الحلم الذي التقى مع الخوف المرضي للملك فيصل والرئيس السادات من السوفييت ليبدأ طور جديد من العلاقات المنكودة بين الشرق والغرب؛ طور دشنه السلم المنفرد الذي وقعته مصر مع إسرائيل عام 1974 وأحدث انقساماً عميقاً داخل العالم العربي. أما الطغيان النفطي فتسبب في شقاق اجتماعي ولدته الفوضى الاقتصادية الناجمة عن تدفق ملايير الدولارات وسعي الغرب إلى إعادة تدويرها باتجاه الاقتصاد الغربي. فمن الطبيعي أن يؤدي أداء الفقراء لفاتورة الدم في المعارك في الوقت ذاته الذي كان فيه أمراء الخليج يحصدون الدولارات، إلى سلوك السادات لطريق مختصرة نحو منبع الرخاء: الولايات المتحدة الأمريكية.

الفصل العاشر: منظمة البلدان النفطية المصدرة للنفط أم منظمة التحرير الفلسطينية؟

يتناول هذا الفصل أسباب فشل العرب في استثمار التموقع التفاوضي المتقدم الذي حصلوا عليه بفعل النفط وتأثير منظمة الأوبيك وانتصارهم في حرب تشرين أكتوبر1973. فقد مهد اتفاقا 18 كانون الثاني يناير 1974 بين مصر وإسرائيل و31 أيار مايو بين هذه الأخيرة وسوريا إلى هدنة حقيقية انتهت بانسحاب جزئي لإسرائيل من الأراضي المحتلة، وهو مؤشر على بداية تبدل ميزان القوى الذي كان دوماً يميل في غير مصلحة العرب.

كما عاد الدور الأمريكي إلى البروز بقوة في المنطقة وكأن أحد الأهداف الرئيسية لحرب تشرين قد تحقق، هذا فضلاً عن كون العرب وجدوا أنفسهم على حين غرة في واجهة الأحداث الدولية؛ لأن الدولارات النفطية جعلت منهم شركاء لا غنى عنهم في النظام الدولي. فقد تمكنوا من تحقيق اختراق دبلوماسي عالمي صاعق انعكست آثاره الإيجابية على العالم من خلال حدث تاريخي فريد من نوعه جسده حوار الجنوب والشمال. هكذا صار الفقراء في خدمة العدالة الدولية وتمكنت البلدان العربية من تحقيق انتصارات دبلوماسية متوالية في المحافل الدولية سيما في الجمعية العامة للأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو إذ حملت هذه المحافل على اعتبار الصهيونية – العقيدة الأساسية لإسرائيل – معادلة للاستعمار وللعنصرية.

لكن يكفي الوقوف على خطاب كل من ياسر عرفات والسادات وبومدين أمام الأمم المتحدة لاكتشاف حجم الطوباوية العربية التي أدارت ظهرها لواقع موازين القوى الإقليمية والدولية السياسية والاقتصادية. وليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه الخطب التي تعبر عن حلم التكامل مع النزعة الإنسانية العقلانية للثقافة الغربية قد ألقاها رؤساء دول تُطل على البحر الأبيض المتوسط. فالتعقيد النفسي إزاء القوة التقنية والثقافية للغرب هي في الحقيقة عقدة المشرق العربي في المقام الأول. هذه المنطقة وإن كانت تشاطر آسيا ثقافتها إلا أنها تُشارك بقدر مماثل إن لم يكن أكثر في حضارة الغرب؛ سيما عبر التراث اليوناني والروماني والبيزنطي.

وفي الوقت الذي كانت تعبر فيه الدبلوماسية العربية عن مثاليتها كان هم الدول الصناعية هو سد الثغرات التي ظهرت في صرح قوتها وسيطرتها من خلال تحاشي الدخول في نقاش شامل ومعمق حول قضية عدم التكافؤ الاقتصادي بين الشمال والجنوب وسبل معالجته.

كانت الولايات المتحدة واليابان وألمانيا نواة المقاومة الغربية لمطالب العالم الثالث وتمكنوا من وضع منظمة الأوبيب في موقع دفاعي أمام الرأي العام العالمي محملين إياها مسؤولية الهزة الاقتصادية التي عصفت بالاقتصادات الغربية، وأفلحوا أيضاً في إلقاء مهمة مساعدة البلدان النامية على عاتق البلدان الأعضاء فيها مع العلم أن هذه المهمة هي في الأصل مهمة البلدان الصناعية، وأُلصقت بهذه المنظمة جميع جرائم البشرية: الفقر. البطالة. التضخم. انتشار الأمراض...، في جو كهذا كان لا بد أن يتفتت تضامن بلدان الأوبيب بعد أن كانت العنصر الأساسي في استراتيجية بومدين للمزيد من الارتقاء بالدور العربي على المستوى العالمي.

هكذا ومنذ 1976 بدأت السعودية بالتنصل من قرارات رفع الأسعار جارة وراءها قطر وأبو ظبي، ولم يُطل عام 1979 حتى أصيبت منظمة الأوبيب بالشلل التام جراء خلاف أعضائها الذين باتت سفاراتهم عرضة لهجمات الفدائيين اليساروين. وفي الوقت الذي كان فيه النفط يتسبب بدمار النسيج الاجتماعي للمشرق العربي كان الغرب يُعيد التوازن بتحقيقه إنجازات تكنولوجية جديدة في ميدان الطاقة، غاضاً الطرف عن مشكلة التنمية التي فهمها بومدين قبل أن تصطدم طوباويته بأنانية الغرب.في ظل انسداد الأفق أمام منظمة الأبيب هل كان أمام منظمة التحرير الفلسطينية فرصة لإحراز تقدم ما؟ في الواقع كانت الفرص معدومة.

فالمنظمة لم تُحافظ على تماسكها جزئياً إلا بفضل براعة زعيمها والدعم الذي حظيت به حركة فتح في أوساط الرأي العام الفلسطيني؛ وهي الحركة التي تُراوح بين الأصولية الإسلامية واليساروية المعروفة، وكان إنشاء حكومة في المنفى على غرار الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية يفترض وحدة الصف التي ما عرفتها قط حركات المقاومة الفلسطينية، فالفوضى التي تعصف في عمق البنى الاجتماعية الثقافية لمجتمع المشرق العربي ستتخذ شكلاً مأساوياً في لبنان بين 1974-1976.

على سبيل التعليق:

قضية النفط

الفكرة الأساسية للكتاب في ما يتعلق بالنفط هي أن هذه المادة جعلت منطقة المشرق العربي تحظى بأهمية استراتيجية واقتصادية كبرى؛ كما أنها ساهمت في تعاظم الدور الأمريكي في مقابل تراجع النفوذ السوفيتي.

فبروز السعودية كحليف أول للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، والخوف المرضي للملك فيصل من الأيديولوجيا الاشتراكية؛ بالإضافة إلى ظهور محاور إسلامية معادية للاتحاد السوفيتي، كانت عوامل حاسمة في منطقة المشرق العربي.

وقد تسبب النفط في تدمير الأساس الاقتصادي لدول الخليج وشبه الجزيرة العربية حيث قضى على القطاعات الإنتاجية التي تُشكل أساس نهضة المجتمعات. وهذا يعزى في نظر جورج قرم إلى أنه تم استغلاله لتحقيق حلم التحديث المتسارع من خلال الموارد التي يوفرها. فهو يعتبر هذه التوجه خطأ في الرؤية بل وخطأ عالم التخلف والفقر.

كما أشار بلغة دقيقة إلى أن العائدات النفطية كانت أساساً للتوافق الاجتماعي الضمني، خصوصاً وأن البلدان النفطية عقدت اتفاقيات مع "بلدان المواجهة" لدعمها لوجستيكياً ومالياً، وهو ما مهد لبداية التعاون العربي ضد إسرائيل بالموازاة مع تعاظم النفوذ السياسي للتيار الإسلامي المستفيد من العائدات النفطية.

وما يُمكن أن يُسجل سلباً على الرؤية التي قدمها المؤلف عن تنامي دور البلدان النفطية وصعود التيار الإسلامي هو أنه تحامل كثيراً على السلفية الوهابية. ووصفها بالتشدد كما اعتبر أنها إسلام متقشف متجرد من كل مظاهر الورع والتدين التي تميز الأديان الأخرى، و بأن إيقاعها منظم على تلاوة القرآن والصلوات الخمس، بدون مظاهر التقوى الأخرى. معتبراً إياها واحدة من الحركات المتشددة التي تريد تحت لواء الدين أن تجعل من البشر أعمدة جامدة ومتماثلة في هيكل مقدس على حد تعبيره.

كما أنه نظر إلى مجتمعات شبه الجزيرة العربية نظرة احتقار. فهو يعتبر السعوديين أبناء "الإخوان" الوهابيين أشباهاً للأمريكيين أحفاد الكاوبوي. من زاوية اشتراكهم في حبهم للنقاوة الدينية و للتقدم، و في اتسامهم بالبساطة الدينية والدينامية الذاتية. وفي تطلعهم إلى الاضطلاع بدور التحكيم و التوجيه على المستوى الدولي.

حرب الخليج

في اعتقادي كان جورج قرم موفقاً إلى حد ما في سلوك طريق الموضوعية عندما تطرق لحرب الخليج. وقد بدأ بسرد مُختلف خصائص السياق الدولي المواكب للحملة الأمريكية الأوروبية على العراق. قبل أن يستعرض لمجريات الحرب حيث يُمكن تسجيل زخم كبير على مستوى المعلومات وتدقيق في سرد الأحداث.

فبدأ بالإشارة إلى تغير المشهد الدولي جذرياً في نهاية القرن العشرين؛ وما أنتجه هذا الجو الجديد من ملامح لعهد جديد في الشرق الأوسط، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي قادت و.م.أ حملة كسب الرأي العام ضد العراق، وبدأت بتقديم صدام على أنه وجه جديد لستالين وهتلر.

وقد كان موقف المؤلف واضحاً في ما يخص علاقة الحرب على العراق بالمصالح الأمريكية في المنطقة. إذ ربطها منذ البداية بالنفط وببحث هذه القوة الحثيث عن سبيل لتأكيد سيطرتها العسكرية على بلدان الخليج، ومن ثم تكريس هيمنتها على المشرق العربي. يقول آرثر شيلسينجر : " لنكف عن ترك أنفسنا فريسة للفوضى الناجمة عن موجات الخوف من ضياع النفط واختفائه، ولنكف عن إرسال الأمريكيين للموت من أجل إعادة ثمن برميل النفط إلى 20 دولاراً ".

على العموم كان رهان و.م.أ هو تحييد إسرائيل لضمان مشاركة العرب في حرب الخليج. كما أنه ومع انهيار الاتحاد السوفيتي بات بمقدورها أن تمسك مباشرة بمصالحها وأن تلجأ إلى الاستخدام المكثف للقوة العسكرية. أشار قرم أيضاً إلى أن إسرائيل لم تعُد بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ذلك الوسيط ذا الحظوة والورقة الرابحة الأساسية على الصعيد العسكري في ظل الانتشار الهائل لقوة العملاق الأمريكي. وحتى عندما تعرضت إسرائيل للقصف العراقي لم تسمح لها و.م.أ بالمشاركة في الحرب واكتفت بتزويدها ببطاريات مضادة للصواريخ. هكذا تقلص نفوذ إسرائيل تدريجياً في منطقة المشرق العربي لصالح و.م.أ.

وكانت مشاركة الأطراف العربية انتصاراً باهراً للدبلوماسية الأمريكية. فقد تمكنت بذلك من أن تنفي طابع "الصليبية" و "الاستعمارية" التي سعى صدام إلى نعتها بها.

هكذا خلُص جورج قرم إلى أن هزيمة العراق بعد هزيمة الاتحاد السوفيتي شكلت نهاية الانشقاق الأيديولوجي، والجغرافي السياسي القديم، سواء الانشقاق شرق-غرب أو الانشقاق شمال-جنوب إذ لم تستطع دولة العراق أن تحفز استياء دول العالم الثالث ضد النظام الدولي الجديد.

الجزء الثالث : من الطفرة النفطية الى تعدد النزاعات العربية

الطالب الباحث: سيف الدين جرادات

الفصل الحادي عشر: الشرخ اللبناني 1975-1976

لبنان صورة مصغرة عن المجتمع العثماني

في الواقع بقي لبنان صورة مصغرة عن المجتمع العثماني حيث لم يعرف لبنان ما عرفته البلدان الرئيسية في المنطقة من انقلابات وتغيير في طواقم النخبة الحاكمة. وما يميز المجتمع اللبناني أنه مجتمع يعرضُ للعالم الخارجي الحداثة والتعددية والديمقراطية والهدوء وهو ما يتنافى ومشاهد الفوضى والعنف الشامل التي اقترفت هذا البلد، ولا ريب في أن سبب تفسخ المجتمع اللبناني هي أفة النفط في المجتمع العربي وديمومة الصراع العربي –الصهيوني.

وينطلق المؤلف قراءة المنطقة من قوله:(المسألة الشرقية ما وجدت إلا جراء المنافسات بين القوى الأوروبية الكبرى في الشرق ولسوف يقع لبنان ضحية هذا التنافس في القرن التاسع عشر بالتحديد بين عامي1840-1860) كان ذلك حين سعرت انجلترا عناصر الخلاف التي تفتك بالمجتمع اللبناني حيث كانت قلقة من تزايد النفوذ الفرنسي في الشرق الأوسط.

عن تأثير الغرب في أقليات المشرق العربي

تجدر الأشارة الى أن لبنان كان خاضعا بين عامي 1843-1861 لوضع قانوني مقلقل قُسم الجبل بموجبه الى مقاطعتين: المقاطعة المارونية الخاضعة لتأثير الفرنسي والمقاطعة الدرزية الخاضعة لتأثير الانجليزي. وسبب العنف الطائفي هو غزو الغرب الثقافي والاقتصادي والصناعي واستغلال الاقليات المسيحية. ومن المحقق أن النخبة السياسية اللبنانية لا تستاهل في الغالب السلطة التي تحوزها لأنها لا تتورع حفاظا على سلطتها عن الاستنجاد بالأجنبي في خصوماتها المحلية. وليست هذه السمات حكرا على النخبة السياسية اللبنانبة، فلا ننسى أن لبنان كان ولا يزال عدسة مكبرة يُرى من خلالها الواقع العربي.

مآسي الخوف

ما يفاقم من وطأة الوضع في لبنان على مدى التاريخ هو الشعور بالإنتماء الى الأقلية وهو شعور يهيمن على الطوائف اللبنانية بلا استثناء(المارونية، الدروز، السنة، الشيعة...). لهذا بعد أن اندمج الفلسطينيين بالسكان في المناطق المأهولة بأكثرية مسلمة زاد خوف الموارنة الذين رأوا في تحالف الفلسطينيين مع الطوائف الاسلامية

تهديدا خطيرا لوجودهم السياسي داخل لبنان. وامتزج هذا الخوف الطائفي بالخوف الأيديولوجي من اليسار الفلسطيني رمز الفوضوية والشيوعية الدولية في نظر تلك البرجوازية الصغيرة الحديثة، وعليه فقد راحت ميليشيات الأحزاب المسيحية المحافظة تهاجم بلا تفريق في المناطق التي يسيطر عليها المسلمين الذين لا ينتمون الى أي حزب سياسي، وهذا ما أدى الى حرب أهلية راح ضحيتها ألاف الضحايا.

الحرب الأهلية عند العرب: أوراق جديدة بيد الصهيونية

نجح الكيان الصهيوني من خلال هذه الحرب في وضع يده على اوراق جديدة، فإضافة الى حق الملاحقة الذي اباح لنفسه أن يمارسه بملء الحرية فوق الاراضي اللبنانية، راح يستخدم الورقة الاستعمارية القديمة ويدعي حماية المسيحيين سيما على حدوده. والجدير بالذكر أن الاضطرابات بين الطوائف التي كان يشهدها لبنان كان الكيان الصهيوني هو من يشعل فتيل الحرب بينهم وبنصب نفسه مدافع عن الاحزاب المسيحية. لكن الدلالة العميقة للشرخ اللبناني على صعيد المشرق العربي تتضح في تفاقم التوترات داخل المجتمع العربي الذي اتخمه النفط ووقف منذ حرب تشرين 1973 يتفرج على الفلسطينيين واللبنانيين وهم يموتون، أما الرئيس السادات فقد اختار خلال صيف 1981 أن يلتقي مناحيم بيغن لتوقيع اتفاقات كامب ديفيد.

لعبة بوكر او لعبة الشطرنج: التناقضات السورية-المصرية

ثمة شخصيتان بسطتا ظلهما على ساحة المسرح العربي منذ عام 1975 الرئيس المصري أنور السادات والرئيس السوري حافظ الأسد، وهم شخصيتان متناقضتان تزايدت صعوبة اهتدائهما الى ارض مشتركة للتفاهم اضافة الى هذا التباين بين الشخصيتين كان ملف الخلافات بين مصر وسوريا مثقلاً للغاية منذ فصم الوحدة بين البلدين عام 1961 فالسياسة (اليساروية) للدولة السورية في الأعوام 1963-1966 هي التي ورطت مصر في حرب 1967 المدمرة، كما أن سوريا استمرت بموقف المزايدة والتصلب حتى عام 1970 حيث بدأت سوريا تدخل لعبة التحول الخفي نحو اليمين من أجل تجديد اللقاء بالغرب وكذلك لإيجاد حل سريع للصراع العربي الصهيوني.

عن الإفراط في حب الغرب

تأكد هذا الاتجاه في ايلول/ سبتمبر 1975 عندما وقعت مصر مع الكيان الصهيوني اتفاقاً بشأن سيناء ينص على أن(النزاع القائم بين البلدين في المنطقة لن يُحل بالقوة العسكرية بل بوسائل سليمية) ولن تكون اتفاقات كامب ديفيد 1978 و1979 سوى امتداد لذلك. في الوقت نفسه ان بعض من دول المشرق العربي

ترغب في الانفراد بزمام المبادرة وفي نهاية المطاف فإن سوريا المعزولة وجدت نفسها مدفوعة في مواجهة هذا المد الموالي للغرب فوقعت اتفاقية تعاون وصداقة مع الاتحاد السوفيتي 1980.

الحسابات الخاطئة لليسار العربي

لقد ترك التشويش الثقافي بصمة ثقيلة على ادراك اليسار الثوري في لبنان وضعية ميزان القوى بالعالم العربي عامي 1975-1976 فاعتبر ان الانظمة العربية (الرجعية) ستنهار فور استيلاء هذا اليسار على السلطة في لبنان، وقد انطوى هذا الموقف عن جهل بطبيعة السلطة في المشرق العربي حيث ما تزال الولاءات الاقليمية والقبلية حية خلف ستار الخصومات الايديولوجية، يضاف الى هذا الجهل انتهازية في الخطاب السياسي قامت على مداهنة الولاءات القبلية دفاعا عن النفس.

يمينا او يسارا، طريق المشرق العربي تمر عبر دمشق

يبدو ان الحافز السوري في احداث عام 1975-1976 هو احكام القبضة على لبنان سياسيا وعسكريا، فعندما اتضح في عام 1975 ان مصر قد تخلت نهائيا عن حليفها السوري وأن الدولة اللبنانية اصبحت على شفا الهاوية، امسى التدخل السوري امرا محتوما. وفي كانون الثاني/يناير 1976 تدخلت سوريا من خلال (الصاعقة) التنظيم الفلسطيني الموالي لها، ثم في مرحلة ثانية في اذار/مارس من العام نفسه أدخلت سوريا بالتدريج الى لبنان وحدات نظامية اثر التفكك الكامل للجيش اللبناني والتقدم العسكري للتحالف الفلسطيني-اللبناني. وقد فصلت الوحدات السورية بين الاطراف المتصارعة، وبذلك اتجه الوضع نحو الاستقرار بعد ان كرست الجامعة العربية الحل السوري للازمة اللبنانية وأضفت عليه الصبغة الشرعية.

التهدئة: وحدة عابرة بانتظار جيمي كارتر

في الواقع ما اعاد الهدوء الى لبنان هو ما لاح في الافق من احتمالات اجراء مفاوضات مثمرة على اثر انتخاب جيمي كارتر رئيسا للولايات المتحدة الامريكية في تشرين الثاني/نوفمبر 1976. وقد بلغت التهدئة ذروتها بتقارب المرحلي بين السادات والأسد. وهكذا تم انشاء قيادة سياسية موحدة بين البلدين. ولابد من القول ان هذه الخطوات كانت عقلانية على المستوى النظري لكنها لم تكن تتصف بالواقعية بحكم النزعة الفردية والمزاجية في الانظمة القائمة. فلم تحسم الاضطرابات التي شهدها لبنان بشكل نهائي، وبقي الصراع مستمرا بين سوريا والعراق، بالإضافة الى العمليات العسكرية التي شهدها جنوب لبنان بين الفلسطينيين والمليشيات اللبنانية اليمينية التابعة للكيان الصهيوني.

خاتمة الفصل

ان الاحداث والوقائع التي شهدها المشرق العربي والتي بلغت ذروتها مع الشرخ اللبناني، قد اظهرت ان المشرق العربي الغني بالتاريخ وبالنفط وبالقادة السياسيين تزايد ضعفا من حيث التماسك الاجتماعي والقومي، كما تزايد هشاشة على الصعيد الاقتصادي، فمجتمع هذه المنطقة المسرف في تعدديته والذي لم تتمكن أي سلطة مركزية من تحقيق التجانس فيه بات يفقد رونقة ويتصدع من كل جوانبه. لذا قد لا تكون المطرقة الصهيونية سوى مطرقة من خشب، لكنها كافية لتحطيم كل شيء.

الفصل الثاني عشر: اللدغة الصهيونية من المؤتمر الصهيوني الأول الى اتفاقات كامب ديفيد 1897-1978

اللدغة الصهيونية العميقة فى المشرق العربى جاءت نتيجة لمنطلقات منطقية كتب عليها استحالة التلاقى فى اطار المعطيات الراهنة للنزاع.

علاقة مثلثة محكومة بالتناقض

من المهم دراسة العلاقة الثلاثية المهيئة دوما للانفجار فى المنطقة بين الغرب والكيان الصهيونى والمجتمعات العربية لاسيما ان الامر يتعلق بقضايا التصورات الايديولوجية والرؤى الثقافية المتناقضة التى تزيد من حدة المصادمات الجيوسياسية داخل مثلث الصراع، اما حل الصراع فيمر عبر ادراك التيارات الايديولوجية والثقافية التى تغذي تلك التصورات والرؤى المشوهة للواقع، ثم عبر التخفيف من شدة اندافعها.

اعلان استعماري لوفاة الشعب الفلسطيني 1917

ما يجب التذكير به هو ان حكومة اجنبية (حكومة بريطانيا) منحت ارضا لا تمارس عليها اى سيادة قانونية هي ارض فلسطين لطائفة دينية يعيش جميع ابناءها تقريبا خارج هذه الارض هي الطائفة اليهودية، عدا ان تعداد سكان اليهود فى فلسطين 9% ومع ذلك يطلق نص اعلان وعد بلفور على العرب الذين كانوا يشكلون 91% صفة (الطوائف غير اليهودية فى فلسطين).

كيف يمارس الغرب اللاسامية معكوسة

لم يولي الغرب اهتماما للمظالم التى عانى منها السكان المحلين فى فلسطين اثراء وعد بلفور. لهذا كان لابد من وقوع سلسلة من عمليات العنف الفلسطينية فى اوروبا حتى يبدأ الرأى العام الغربى بالتنبه لوجود مأساة

فلسطينية. على عكس المعانى اليهودية المدرجة اصلا فى صميم التاريخ الاوروبي تمخض عن ذلك مساندة ودعم بلا قيد او شرط من قبل اوروبا للحركة الصهيونية وتحول هذا الدعم الى نوع من اللاسامية المعكوسة. وعلى صعيد الثقافة والايديولوجيا الغربيتين كان الارث التوراتي يهلل لتلك العودة الى (ارض الميعاد)، وأخيرا كانت انتصارات الصهيونية على السكان المحليين تقابل بالتصفيق والتهليل. وكانت اليهودية سيما بعد اقامة (الدولة) الصهيونية بمثابة قاعدة لحماية الحضارة الغربية —المسيحية فى مواجهة الهجمة الاسلامية الشيوعية لهذا لا عجب ان تنمو فى الغرب المجموعات الضاغطة العاملة لمصلحة الكيان الصهيوني وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية.

والواقع ان الخوف من تنامى وجود الاتحاد السوفيتى فى المنطقة افقد الغرب القدرة على ادراك واقع المجتمع العربى. وعندما توصل الغرب في السبعينات الى ان يدرك ان الواجهة قد تغيير في الساحة العربية، وان النفط بات يربط من جديد الشرق الادنى بالغرب، فإن تعجل القوى السياسية العربية الموالية للغرب وشططها ادت الى اجهاض حوار كان من الممكن ان يكون مثمرا. وهذا ما ادى الى تقويض التوازن العربي –العربي وتكريس اللدغة الصهيونية وتجديد نزيف الجرح الفلسطيني.

اتفاقات كامب ديفد، كيف يتم التفاوض بشأن المعاهدات اللامتكافئة

جاءت اتفاقات كامب ديفيد نسخة منقحة من اعلان بلفور، فبموجبها بات لمصر والكيان الصهيوني حق التصرف بما تبقى من فلسطين (الضفة وغزة) وان دعيت الاردن للانضمام للمفاوضات، كما ان الاتفاقات لا تشير إلا الى سلطة حكم ذاتي يحددها نص الاتفاقية بأنها عبارة عن (مجلس اداري). وقد وضح الرئيس الامريكي كارتر بأن تعابير (الفلسطينيين) و(الشعب الفلسطيني) تفسر وستفسر من قبل الطرف الصهيوني بالعرب الفلسطينيين والفارق هنا مهم جدا، فهو يصون ويكرس الخرافة الصهيونية القائلة لا وجود لشعب فلسطيني. اما على الصعيد العربي فقد سارع رؤساء الدول العربية الى عقد مؤتمر القمة في تشرين الثاني/نوفمبر 1978 في بغداد وقرروا عدم الاعتراف باتفاقات كامب ديفيد ونتائجها، وفي اذار/ مارس 1979 اقر وزراء الخارجية العرب فرض عقوبات اقتصادية وسياسية على مصر.

لقد كان السادات يراهن على نجاح هذه الاتفاقات ذلك لان مصر كانت تعاني من وضع اقتصادي متدهور وكذلك تصاعد المعارضة في الداخل بالإضافة الى عداء اقرانه العرب. اما الامريكيون فإن جيمي كارتر كان يواجه مشكلات خطيرة على جميع الجبهات وتدهورا في شعبيته لذلك كان في امس الحاجة الى نجاح كبير

على صعيد السياسة الخارجية.ووسط كل ذلك تمكن التعنت الصهيوني من ان يشق طريقة بسهولة ليفرض جميع المطالب التي تمليها عليه اطماعه وديناميه توسعه الاقليمي.

كما ان معاهدة السلام الموقعة بين مصر والكيان الصهيوني في اذار/مارس 1979 لم تكن اقل انحرافا من اتفاقات كامب ديفيد فهي تفرض على مصر حيادا عسكريا تاما تجاه الكيان الصهيوني مهما تكن الظروف دونما مقابل يقدمه هذا الاخير سوى اعادة سيناء على مراحل عدا عن ان المعاهدة تقيد سيادة مصر العسكرية على الاراضي المستعادة بقيود شتى وكان ذلك بتعهد وضمان من قبل الولايات المتحدة الامريكية.

العودة الى الرفض والانشقاق

على الرغم من حب النخبة السياسية العربية للغرب إلا انهم لم يستطيعوا ان يوافقوا على معاهدة تقوم على هذا النحو اللامتكافئ، فامتنعت الاردن والسعودية وحتى المغرب التي رعت الاتصالات المباشرة الأولى بين مصر والكيان الصهيوني عن دعم اتفاقية السلام المصرية-الصهيونية. وفي ظل هذا الواقع بدأت المنطقة تشهد صعود العراق على مسرح العالم العربي، وراحت تزداد مغازلة الغرب لها، وفي الوقت نفسه كانت عوامل العزلة تتراكم ضد سوريا، وبالتالي كانت الامور تسير على احسن ما يرام بالنسبة للغرب. فسوريا ليست بتلك القوة النفطية، ولبنان ترك لتلتهمه الخصومات العربية، اما الفلسطينيون فمن الممكن الوثوق بالقوة الصهيونية اذا ما اشتد صخبهم كما في اجتياح لبنان حزيران/يونيو 1982.

السلام: (نهاية) الشعب اليهودي ام تسليم بوجود الكيان الصهيوني

تستند الفكرة الصهيونية على التوراة فبدون التوراة لا وجود للصهيونية او لا وجود على الاقل لأساس ايديولوجي تنهض عليه ادعاءات قانونية هشة. ومن هنا فإن الرضوخ بشأن (يهوذا والسامره) أي الضفة الغربية يعني في نظر الارثوذكسية الصهيونية فتح الطريق امام الحقوق الفلسطينية في الجليل وعكا وحيفا... الخ. لهذا فأي ضعف صهيوني في هذا المجال يعني الاعتراف بشعب طرد من ارضه ثم بوقوع اغتصاب لا بد من تلاقي عواقبه.

وبالتالي نكون امام طابعا جدليا حادا فالاعتراف بالوجود الفلسطيني كشعب عاش على ارض فلسطين قبل عام 1948 يعني ضرب الصهيونية في عمقها. لهذا كانت اتفاقات كامب ديفيد من منظار الارثوذكسية الصهيونية ناجحة تماما، لأنها دعمت احتلال كامل فلسطين بدون الاقرار بأي من الحقوق الفلسطينية التي كان قد اعترف بها المجتمع الدولي عام 1967.

اثر الثورة الايرانية على حالات النزاع في المشرق العربي

اضافت الثورة الايرانية التي انتهت باستيلاء علماء الدين على السلطة في نهاية السبعينات تعقيدات على الاوضاع في المشرق العربي، حيث أن ايديولوجية الامام الخميني وفرت مخرجا مريحا لجميع من خابت اامالهم من القومية العربية، كما ستساهم في تغيير المناخ الايديولوجي والثقافي تغيرا جذريا. وفعلا سعت ايران الى فرض نفسها كقوة مهيمنة في الشرق الاوسط فرايتها لم تعد راية حداثة مستوحاة من الغرب انما قومية اسلامية جامعة تفضح السلفية الاسلامية السعودية احدى الركائز الاساسية للسياسة الامريكية في المنطقة. ومنذ ذلك الحين رزح الشرق الاوسط تحت تأثير العواصف الدينية

بينما اندفع العراق متهورا في حرب ضروس ضد ايران بمساعدة الدول الغربية ومساعدة شبه الجزيرة العربية، وقد انشأت سوريا علاقات شراكة سياسية اقليمية مع النظام الايراني الجديد الشيء الذي سمح لسوريا التوسع في دورها الاقليمي وتعزيز نفوذها في لبنان فنجحت في ابعاد أي نفوذ صهيوني غربي عنه، وأخيرا فكل هذه التطورات والمعطيات الاقليمية ستنعكس على الساحة اللبنانية بشكل مدمر.

الفصل الثالث عشر: اجتياح لبنان او آلة تعطيل الزمن 1982

جاءت الحرب العربية–الصهيونية لتؤكد الدينامية الصهيونية وتكرس تفكيك التضامن العربي. ولم يكن العرب اقل انقساما بشأن الحرب العراقية–الايرانية التي اتخذت ابعادا خطيرة تهدد استقرار الانظمة المحافظة في شبه الجزية العربية. وقد كانت القطيعة التامة بين سوريا والعراق اضافة الى انشغال هذا الاخير في حرب ضد ايران، لتعطي الجيش الصهيوني حرية الحركة في الشرق الادنى.

تلك هي الصورة التي تعبر عن فصل اخر من فصول فشل القومية العربية المعادية للإمبريالية وقد شكل اجتياح لبنان 1982 السحق ربما النهائي للناصرية حيث كان مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائهم في الحركة الوطنية اللبنانية يشكلون اخر تجلٍ لها.

نهاية الناصرية

في واقع الامر كانت منظمات المقاومة الفلسطينية محشورة بين السندان السوري والمطرقة الصهيونية، وعلى هذا النحو انقطعت هذه المنظمات بصورة متزايدة عن قواعدها الشعبية الحقيقة في الضفة الغربية وقطاع غزة. اما حركات اليسار البناني فكانت قد فقدت ثقة اللبنانيين وذلك راجع لإدارتها الفوضوية للمناطق التى تسيطر عليها علاوة على خلافتها الداخلية التي عكستها معارك الاحياء والشوارع. فقد اضحت بيروت الغربية منذ 1980

مصرحا للعنف وانعدام الأمن على عكس ما بدت عليه بيروت الشرقية والمناطق الخاضعة لسيطرة المليشيات اليمينية بقيادة بشير الجميل وكأنها واحة للأمن والازدهار. ومع اجتياح لبنان جاء بشير الجميل الذى جسد مزيج لبنانى من الناصرية والسادتية، حيث استطاع خلال عشرين يوما وبعد انتخابة رئيسا للجمهورية فى أب/ اغسطس 1982 ان يستميل غالبية الناس من جميع الطوائف اللبنانية وزادت شعبيته حين رفض ضغوط الصهيونية لتجبره على التوقيع على معاهدة صلح بين لبنان والكيان الصهيونى، وتم اغتياله فى 14 ايلول/ سبتمر 1982 وقد قام البرلمان بانتخاب اخوه امين الجميل رئيسا كدليل على الرجوع الى الحضيرة الغربية وبذلك يكون لبنان تحت المظلة الامريكية والإدارة الصهيونية ومع استدارة جميع الانظمة العربية فى المنطقة نحو الولايات المتحدة الامريكية لتوقف آلات الحرب الصهيونية نصبح امام الانزلاق المحتوم نحو الغرب فتلاشت الكرامة العربية كليا لتحل محلها عمالة تامة للقوة الامريكية.

عن العنف فى المنطقة وتحسس الرأى العام الدولى به

لا ريب فى ان ضرب بيروت وارتكاب المجازر فيها عام 1982 اثار انفعالا فى العالم لكنه لم يلق قط مستوى السخط الذي قوبلت به الاعمال العدوانية الامريكية فى فيتنام فى مطلع السبعينات فخلال عشر سنوات تغيرت الحساسية السياسية الدولية ومن دفع ثمن هذا التحول هم اللبنانيون والفلسطينيون فالوحشية الصهيونية لن يوضع لها حد الى من قبل الولايات المتحدة بعد سبعين يوما من الحصار من خلال مشروع الوسيط الامريكى فيليب حبيب مع العلم ان نص هذا المشروع لا يشير الى فكرة اى انسحاب صهيونى من لبنان بينما فقط الى اجلاء الفلسطينيين المسلحين والقوات السورية عن بيروت، ومع ذلك لم تبدى السلطات اللبنانية ولا الدول العربية اى رد فعل بشان هذه الثغرة الكبرى فى خطة حبيب فهذه الثغرة سمحت للكيان الصهيونى بدخول بيروت الغربية بعد مقتل بشير الجميل لتنتهج السياسية التقليدية وهى التفريق بين طائفة وأخرى وإحكام قبضتها على الطوائف قاطبة وأخيرا يمكن القول ان مجازر صبرا وشاتيلا هي وحدها التي اثارت وسط كل هذه البلبلة السياسية انفعالا اكيد بالعالم.

معادلة مستحيلة جديدة مشروع ريغان ومشروع فهد.

تضافرت الاحباطات المتلاحقة منذ 1956 لتوصل المجتمع العربى الى حالة الجمود السياسى المطلق، الى ان جاء مشروع الرئيس ريغان الذى استقبل بارتياح من قبل رؤساء جميع الدول العربية مع ان ذلك المشروع ارجع القضية الفلسطينية الى ما كانت عليه قبل خمسة عشرة عام.

وكذلك مشروع فهد الذي يقضي بإقامة دولة فلسطينية بعد فترة انتقالية لا تتعدى اشهر بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية. والواقع ان مشروع ريغان مثله مثل مشروع فهد لا يفعل سوى ان يذر الرماد في العيون اذ يؤكد اهتماما مبدئيا بالقضية الفلسطينية بدون ان يصدر عن الجانب العربي او الامريكي أي مسعى عملي للتقدم باتجاه خلق كيان فلسطيني. ثم ان كل الاهتمام الامريكي كان منصبا على لبنان فريغان كان يتطلع الى التوصل الى تطبيع العلاقات الصهيونية-اللبنانية.

اتفاق 17 ايار/مايو: نصر دبلوماسي لقصر النظر الامريكي

اعتقدت الولايات المتحدة الامريكية أنه في بتوقيع المعاهدة اللبنانية-الصهيونية في 17 ايار/ مايو1983 قد حققت نصرا في مجال السياسة الخارجية وما كان لها ان تدرك ان هذا الصلح ليس عادلا وقابلا لأن يدوم فضلا عن انها لم تدرك أن تمكين اليمين المتطرف من السيطرة على المؤسسة السياسية اللبنانية يعني الحكم على لبنان الغرق من جديد في مستنقع الفوضى وعدم الاستقرار فبلد التوازنات والمعادلات الدقيقة لا يمكن ان يُحكم إلا من الوسط.

وبعد طول صمت اوحى وكأن سوريا لا تمانع التفاوض اللبناني-الصهيوني رفعت دمشق رأسها من جديد وأعلنت استنكارها بصوت عالٍ محذرة العواصم العربية من كامب ديفيد جديدة، وما مكن سوريا من تشديد لهجتها ان الاتحاد السوفيتي امدها بعتاد متطور،اما الاتحاد السوفيتي فقد ركز كل دعواته على مهاجمة الوجود الامريكي العسكري في لبنان الذي يهدف الى اصباغ الصفة الشرعية على الوجود الصهيوني في لبنان.

حصار عرفات في طرابلس او كيف تمر طريق فلسطين بدمشق

في نهاية 1983 قام منشقون فلسطينيون عن قيادة منظمة التحرير يحظون بتأييد سوري بتطويق اخر معقل لأنصار ياسر عرفات في طرابلس، هكذا بدأت حركة التمرد الفلسطيني على ياسر عرفات، وقد دام حصار طرابلس اسابيع عدة وكانت القوة المحاصِرة قوة عربية مساندة لمنشقين فلسطينيين فما لبث عرفات ان طرد من طرابلس، لتثبت سوريا بحصارها لطرابلس 1983 من قبلها عامي 1975-1976 وبتشجيعها لعملية الانشقاق الفلسطيني ان عملية السلام في المنطقة لابد ان تمر بدمشق.

وقد توجه عرفات الى مصر ليلتقي فيها بالرئيس حسني مبارك، كما انه سيطوي مع الاردن صفحة الاحداث التي رت عامي 1969-1970

الاقتراب المطرد من شفير الهاوية

في هذه الاوضاع المضطربة ستجد ايران كل الذرائع الممكنة لمضاعفة حضورها عبر شبكات نفوذها المعادية للغرب في لبنان وفي كل الدول العربية. واستقبل المشرق العربي بداية 1984 وهو يقف على شفا هاوية. فقد افلت الازدهار النفطي بسبب تقلص الاستهلاك وتراجع الاسعار وراحت ايران ونيجيريا تعرضان نفطهما بأي سعر كان وعمدت ايران الى ذلك لتمويل حربها ضد العراق.

وقد امسى الكيان الصهيوني قوى مما سبق فقد احتل ثلث لبنان وبذلك يكون قد طوق سوريا تدريجيا عدا عن انه زاد من وتيرة الاستيطان في الضفة الغربية. والواقع ان سائر البلدان العربية التي انطوت على مشاكلها لم تعد قادرة على التطلع الى فلسطين ولبنان حيث اصبح التقدم الايراني في المناطق العراقية يشكل تهديدا بالنسبة لبلدان شبه الجزيرة العربية.

خلاصة الفصل

بين حملة السويس 1956 وغزو لبنان 1982 عرف المشرق العربي مسيرة اعترتها الفوضى فأصيبت مرات عديدة بالصدمات العسكرية والاقتصادية والايديولوجية لتجد نفسها مجددا فريسة لعبة كبار هذا العالم، ليصبح المشرق العربي متفجرا وغارقا في مستنقع المعادلات المستحيلة.

الفصل الرابع عشر: زمن الرهائن 1985-1986

شهد عامي 1985 و1986 عمليات (ارهابية) كبرى في اوروبا وعمليات خطف رهائن من الرعايا الاوروبية والأمريكية في لبنان، غير ان الغرب كعادته لم يميز بين مختلف الجهات التي كانت تتبنى العمليات وتبررها وتلخص الامر عنده بضرورة مواجهة (بربرية) الشرق، وفي نهاية 1986 اعلنت الادارة الامريكية انه ينبغي مقاطعة بيروت واقترحت قصفها ردا على عمليات خطف الرهائن.

استطاعت ايران ان تشتري اسلحة من الولايات المتحدة الامريكية الشيء الذي ساعدها في ان تثبت وجودها على الصعيد الاقليمي، وحصل الاختراق الايراني للأراضي اللبنانية في عام 1985 واستكملت عملية تفكيك لبنان التي بدأها الكيان الصهيوني.

حزب الله او الاختراق الايراني في لبنان

ادى الغاء اتفاق 17 ايار/ مايو عام 1983 الى اثارة الكيان الصهيوني فاتبع في الجنوب سياسة فرق تسد وسياسة الارض المحروقة. كان على حزب الله ان يولد في هذه الظروف كتنظيم شقيق لامل الاسلامية في

بعلبك، وتحت شعارات شتى تمكنت السفارة الايرانية في بيروت من ايجاد افضل السبل لتطويع القوى الغربية لمصلحة ايران وكان خطف الرهائن من الدول الغربية المؤيدة للعراق وسيلة فعالة ذات نتائج مدهشة وأخيرا فقد ادى التفاهم الامريكي –الصهيوني الى جعل المشرق العربي منطقة عاصفة اصابت اوروبا بشظاياها، غير ان لبنان ظل ساحة الصراع الدموي الاكثر عمقا.

الف حرب وحرب في لبنان

بعد انسحاب القوة متعددة الجنسية(الولايات المتحدة الامريكية وايطاليا وفرنسا) في شباط/فبراير 1984 ثم انسحاب الكيان الصهيوني الجزئي من جنوب لبنان استتبت السيطرة الامنية على الاراضي اللبنانية لمليشيات مسيحية متوحشة يمدها الاجنبي بالسلاح والعتاد لتقاتل كمرتزقة لصالح اطراف شتى، وقد كان واضحا ان ايا من القوى السياسية على الارض لم تكن راغبة بحوار حقيقي ذلك ان مثل هذا الحوار يبقى مستحيلا في الربط بين السلطة والطائفية الدينية، الى ان انفجرت حرب شاملة بين الفلسطينيين ومليشيا امل الشيعية في ربيع 1985 مما اجج التوتر بينها وبين المليشيا الدرزية دام هذا التوتر الى 1986 وتفاقم مع 1987 وامتنع حزب الله عن المشاركة في هذا القتال بل حاول وقفه لكن دون جدوى.

كل ذلك ادى الى تعميم المعارك في بيروت بين المليشيات الشيعية والدرزية مما ادى الى دخول القوات السورية في اذار/مارس 1987 سعيا منها لوضع حد للعنف والرعب المخيمين على العاصمة بيروت ولم تعترض على ذلك القوى الغربية الكبرى. وبدت سوريا على غير عادتها مستعجلة لقطف ثمار سياساتها ضد الاحتلال الصهيوني للبنان، وبالتالي تضافرت كل العوامل لإنهاء مشروع سوريا لاحلال السلام في لبنان وهو مشروع اقر على عجل.

منظمة التحرير الفلسطينية: ضياع دبلوماسي وعسكري

بعد انتقال مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الى تونس لم يجد ياسر عرفات سبيلا غير اللجوء الى التقارب مع مصر والأردن املا بالمفاوضات مع الكيان الصهيوني فانشقت المنظمات (المتطرفة) التي تتخذ من دمشق مقرا لها اعتراضا على خطة عرفات الاستسلامية، غير ان هذا التعرج لم يفضي الى شي لان منظمة التحرير رفضت في اللحظة الاخيرة مسؤولية الموافقة على القرارين 242و338، لهذا تصاعد التوتر بين ملك الاردن والرئيس عرفات وضاعت فرصة للسلام وزاد الوضع الداخلي في الاراضي المحتلة تدهورا، لذلك لم يكن امام المنظمة غير لبنان لتعيد الاعتبار والوحدة الى صفوفها.

هذه العودة شهدت عودة الاتحاد السوفيتي الى ساحة الشرق الاوسط والذي صار حاضرا في المجلس التشريعي الفلسطيني المنعقد في الجزائر في نيسان/ابريل 1987 الذي نقض اتفاقات الملك حسين وعرفات وادان اتصالات المنظمة بمصر، وهكذا تكون الدبلوماسية الفلسطينية قد عادت لنقطة البداية من غير ان يُعرف في أي اتجاه ستمضي في المستقبل، انما كان من الواضح ان الاتحاد السوفيتي اصبح القوة المحركة التي اعادت الوحدة الى الحركة الفلسطينية عدى عن انه نشط في شؤون الخليج العربي والفارسي.

ثورة الحجارة وحرب الخليج

هذه المناورات الدبلوماسية الاقليمية والدولية تحركت بفعل عاملين الأول وهو الانتفاضة العامة في الضفة الغربية وقطاع غزة في ربيع 1988 والثاني هو انتفاض العراق وتحوله الى عملاق عسكري، ثم اندفعت في لبنان حركات احتجاج نظمها المجتمع المدني ضد الاعمال الوحشية التي ترتكبها المليشيات، اما الانظمة العربية فقد كانت تنظر بعين من القلق الى نهوض حركة تحشرها في زاوية الاتهام لعجزها عن ممارسة أي ضغط عسكري على الكيان الصهيوني، فعملت الدول العربية على تلبية دعوة الجزائر لحضور قمة استثنائية للجامعة العربية في تشرين الثاني /نوفمبر 1987 من اجل دعم الانتفاضة الفلسطينية، ووضعت الشأن الفلسطيني واللبناني جانبا، واهتمت بشكل حصري بعودة العلاقات بين الجزائر والمغرب الى التهدئة.

ظهر عنصر جديد في صيف 1988 هو هزيمة ايران العسكرية الناجمة عن تفاقم الصراعات داخل النظام، والأحداث التي تلت وقف اطلاق النار العراقي–الايراني بينت ان تفكك المشرق العربي بدأ يأخذ اشكالا مفجعة.

الفصل الخامس عشر: انفجار المشرق العربي من حرب التحرير في لبنان الى اجتياح الكويت

الحكومات غير الشرعية في لبنان

لا شك انه منذ انفجار الازمة اللبنانية عام1975 كانت الانتخابات الرئاسية مجرد مظهر صوري فقد فرضت المدفعية السورية انتخاب الياس سركيس عام 1976 وفرضت الدبابات الصهيونية انتخاب بشير الجميل وبعد مقتله انتخاب شقيقه امين، الا ان هذا النفوذ السوري والصهيوني سيعرف تراجعا عام 1988 فقد ظهر العراق بصورة لافتة على المسرح اللبناني بتزويده مليشيا القوات اللبنانية المعادية لسوريا بالدبابات والعتاد العسكري،

كما ان منظمة التحرير الفلسطينية اقامت العلاقات مع الفريق المسيحي الذي اجاز للفلسطينيين العودة الى اراضه،وتدخلت ايران فراحت تدعم ميليشيا حزب الله.

وفي مواجهة هذه التطورات حاولت سوريا ان تفرض مرشحها مخايل الضاهر، ثم بدا ان الولايات المتحدة الامريكية كانت تفضل ميشال عون، هذه المواجه بين القوى من اجل الاستحقاق الرئاسي ستأخذ شكل العمل من اجل فقدان النصاب في المجلس النيابي لتعطيل الانتخابات.

وفي الدقائق العشر الاخيرة من نهاية عهد امين الجميل عيين حكومة من خمسة عسكريين برئاسة العميد ميشال عون تضم اليه مسيحيين وثلاثة مسلمين ورفض الضباط الثلاثة المسلمين تسلم مهامهم في حين اعلن من تبقى من الحكومة انفسهم سلطة شرعية في لبنان.وهكذا صار للبنان حكومتان ادعت كل منهما تمثيل شرعية الدولة واستمراريتها في ظل شغور موقع رئاسة الجمهورية.

تعايشت الحكومتان المتعارضتان وعملت افضل من عملها في الظروف الطبيعية، لكن في شباط/فبراير 1989 انهار هذا الوضع القائم حيث دخل الجيش اللبناني بقيادة مشال عون في حرب مفتوحة مع الميليشيا المسيحية التي كانت تفرض على المواطنين جبايات مرهقة ونال العماد عون حظوة شعبية واسعة في كل لبنان، وساد الاعتقاد ان لبنان في طريقه الى ايجاد حل لمشكلاته لكن عمت الفوضى من جديد وحل التدمير المكثف وخيم البأس ع اللبنانيين.

العماد عون وحرب التحرير

في الرابع عشر من شهر شباط/فبراير 1989 اندلعت المعارك بين الجيش اللبناني والميليشيا المسيحية ودخل لبنان في عملية تفتيت متسارعة ادت الى تكريس تشتته وأصبحت ظاهرة الانقطاع الثقافي وتشوه الادراك للواقع على الصعيدين اللبناني والعربي تتجدد وتستعاد. حيث اعلن العماد عون المدعوم من العراق وفرنسا عن شن حرب التحرير ضد المحتل السوري وظلت لبنان طيلة ستة اشهر في النار والدم الى ان توقف اطلاق النار في 23 ايلول/سبتمبر 1989، وفي نهاية شهر ايار/مايو عقدت قمة عربية في الدار البيضاء في المغرب لمعالجة الازمة اللبنانية وتميزت بمواجهات كلامية حادة بين سوريا والعراق وقد حذر الرئيس صدام حسين الرؤساء العرب من انه اذا لم يتعاملوا بجدية مع سيادة لبنان فسيكون هو في حل من بعض التزاماته حيال وجود الكويت، إلا انهم لم يأخذوا هذا التهديد على محمل الجد والذي وضع موضع التنفيذ بعد عام.

وخرجت القمة بلجنة رئاسية ضمت ملك المغرب والرئيس الجزائري وملك السعودية، ولم تستطيع هذا اللجنة ان تخضع سوريا فاحتاجت الى تدخل الدول الكبرى الثلاث فرنسا والولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي لتصل الى وقف اطلاق النار في 23 ايلول على اساس رفع الحصار والبدء بالمفاوضات بين اللبنانيين لإعادة توزيع السلطة بين الطوائف وإرساء اسس العلاقة السورية –اللبنانية، الى ان تم الاتفاق في الطائف في السعودية وسمي (اتفاق الطائف) الذي حظي بتأييد المواطنين.

وقد ارتكبت المجموعة الدولية خطأ معكوساً فلم يتم التركيز إلا على اعادة توزيع طائفي للسلطات وعلى انتخاب رئيس مؤيد لسوريا كشرط مسبق لأي انسحاب سوري. وبذلك تكون قد فشلت حرب التحرير حيث اصبح الوجود السوري مكرسا ومباركا من المجموعة الدولية

وفي الواقع ظل لبنان ممزقا فقد تجددت المعارك بين الوية الجيش اللبناني تحت قيادة العماد عون وبين ميليشيا القوات اللبنانية منذ 20 كانون الثاني/يناير 1990 ولم تتوقف المعارك إلا في الصيف بعد التدخل السوري ودعم الجيش اللبناني بقيادة العماد عون، وقد نشبت معارك اخرى بين ميليشيا امل وحزب الله. وفي ظل الاوضاع اللبنانية التي تنعكس عليها الاوضاع الاقليمية يبدو ان كل الامور تؤشر الى تكريس تفتت البلاد وتأكيد انفجار المشرق العربي بدليل ما تشهده الساحة الفلسطينية من تطورات وكذلك تلك المتعلقة بالاجتياح العراقي للكويت.

فلسطين في حالة التقادم

اعلن ياسر عرفات في الثاني من ايار/مايو 1989 تقادم الميثاق الوطني الفلسطيني وكان ذلك استجابة لمطالب القادة الصهاينة لكي يقبلوا بنقاش المطالب الفلسطينية لان الميثاق ينص على اقامة الدولة الفلسطينية على ارض فلسطين التاريخية كلها.

عرفت منظمة التحرير الفلسطينية في نهاية عام 1988 تطورات سريعة جدا بسبب حالة الانفراج في العلاقات بين الولايات المتحدة الامريكية–والاتحاد السوفياتي، ففي 28 تموز/يوليو اعلنت الاردن انها غير معنية بمصير الضفة الغربية وقطاع غزة، وفي اب/ اغسطس اطلقت منظمة التحرير الفلسطينية تصريحات عبر بعض قاداتها باستعدادها للاعتراف (بدولة) الكيان الصهيوني، وكان عليها ان تتحرك تحت ضغط الانتفاضة في الاراضي المحتلة وإلا فقدت تأثيرها على قيادة الانتفاضة، فدعا المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد من 12-15 ايلول/سبتمبر في الجزائر الى اقامة دولة فلسطينية برلمانية وديمقراطية مستندا الى قرار الامم المتحدة في تقسيم فلسطين.

وفي ربيع 1990 لم يعد مصير اللبنانيين المأساوي ولا مصير الفلسطينيين ما يثير اهتمام الغرب، بل العراق وأسلحته الكيميائية وراحت تتحضر أزمة لا سابق لها بين الغرب ولمشرق العربي، تجسدت فيها كل السنوات الاربعين الماضية.

الكويت او بوسنة وهرسك الشرق الاوسط.

حين احتل الجيش العراقي الكويت في 2 أب اغسطس 1990 خلال ست ساعات اصيب الغرب بصدمة قوية، وعندما اعلن الرئيس العراقي في 12 اب/اغسطس انه على استعداد للانسحاب من الكويت اذا انسحب الكيان الصهيوني من الاراضي العربية المحتلة في فلسطين ولبنان وسوريا وإذا انسحبت سوريا من لبنان استشاط الغرب غضبا لأن الدكتاتور في نظرهم يفاقم الوضع ويبحث عن تحويل الكيان الصهيوني الى كبش محرقة سعيا وراء دعم الجماهير العربية الغاضبة التي بدأت تتظاهر ضد الانزال الامريكي في السعودية حيث ارسلت مئات الالاف من جنودها تحريرا للكويت وإعادة العائلة الحاكمة على الكويت وأبار نفطها.

كما ارسلت مصر قواتها لمساندة القوات الامريكية وكذلك سوريا التي ارسلت ثلاث ألاف جندي بشكل مبدئي على ان ترفع مساعدتها الى خمسة عشر الف جندي مع نهاية أب اغطسطس، ففي اطار هذا التطابق مع الغرب لم يخرج نظام الاسد عن منطق عدائه اللامحدود للعراق.

وفي 15 اب بادر صدام حسين الى سحب قواته من الاراضي الايرانية وتحرير اسرى الحرب الايرانيين والاعتراف باتفاقية الجزائر الموقعه عام 1975 التي يتقاسم العراق بموجبها مع ايران مياه شط العرب، هذا التراجع المفاجأ عن كل المواقف العراقية حيال ايران ترك تأثيره على ايران فالنظام الايراني لا يمكن ان يدعم انتشارا امريكيا على بعد 20 كيلو متر من شواطئه ومع ان ايران ادانت اجتياح الكويت إلا انها رفضت بحدة الموقف الامريكي. هنا كان الذهول الغربي فكيف يمكن ان يتقارب اعداء الامس كما أنه لم يفهم موقف منظمة التحرير الفلسطينية بامتناعها عن ادانة العراق وصنفها في خانة الحليف لدكتاتور العراقي، عدا عن انها اهتزت لتحركات الجماهرية التي شهدتها الاردن وتونس والجزائر والضفة الغربية التي عبرت عن شجبها للمبادرات الامريكية. وقد دعا الرئيس الفرنسي امام الجمعية العامة في شهر أيلول سبتمبر الى ضرورة فرض احترام القانون في الشرق الاوسط وخصوصا في فلسطين ولبنان وتحدث عن ضرورة استشارة سكان الكويت حول مستقبل دولتهم وهذا ما اشار اليه الرئيس الامريكي في خطابه ولو كان بصورة خجولة.

لكن المشكلة الاساسية والجوهرية في الازمة تكمن في ثلاث حقائق الأولى. هل الترسانة العسكرية العراقية تشكل تهديدا للتفوق العسكري الصهيوني في الشرق الأوسط؟ الثانية: ان الاوضاع الهشة في امارات النفط تشكل عاملا اساسيا في تحديد السياسة الغربية في المنطقة. ثالثا ان العائدات النفطية في العراق وإيران والجزائر لم تعد تكفي حيث ان اجتياح العراق للكويت ادى الى اختلال التوازن في سوق النفط.

ان الغرب ظهر في نظر الرأي العالم المحلي انه الة مجردة من أي ذاكرة تاريخية لا ينتصر للحق والأخلاق إلا حين تملي عليه مصالحه القصيرة الأجل، ففي 16 كانون الثاني/يناير 1991 بدأت القوات الامريكية قصفا جويا وبحريا على كل الاراضي العراقية ودمرت القدرة العسكرية والاقتصادية للعراق كما انها حثت الاكراد في شمال العراق على التمرد وفي السياق ذاته تمرد الجنوب العراقي ذو الاغلبية الشيعية مدعوما من ايران وفي 28 شباط/فبراير توقف اطلاق النار بشروط قاسية على العراق.

غير ان النظام العراقي صمد اما العاصفة مع انه فقد هيمنته على اجزاء واسعة من المناطق الكردية اما في الجنوب فقد قمعت الانتفاضة بواسطة الجيش العراقي، وقد توجهت الولايات المتحدة الامريكية نحو سياسة تجزئة العراق فشجعت الانتخابات في كردستان العراقية في ربيع 1992 وفرضت حظرا على الطيران العراقي في جنوب البلاد.

خلاصة الجزء الثالث

هكذا ادت التدخلات الغربية في المشرق العربي منذ 1948، وعجز الانظمة العربية منذ نصف قرن عن بناء اسس للتضامن الفعال، الى زوال او تفكيك ثلاث من الدول العربية وهي فلسطين ولبنان والعراق. وقد جهدت الولايات المتحدة الامريكية التي بدأت تتزعزع صورتها المحلية وصورة حلفائها المحلين غداة العقوبات التي فرضتها ع العراق، لكي تعقد مؤتمرا للمفاوضات الصهيونية –العربية وكان ذلك في 30 اكتوبر 1991 في مدريد، وافضت عملية السلام المتعرجة الى اتفاقات اوسلو 1993. غير ان هذه الاتفاقات لم توصل الى تحقيق سلام حقيقي يلغي بصورة نهائية اسباب الصراع العربي–الصهيوني، بل على العكس من ذلك ظلت المنطقة تشكو من تزايد الارهاب وعدم الاستقرار، وأصبح السلام اكثر التباسا من أي وقت مضى بسبب قصر النظر الغربي وتعنت الصهيوني وإشكال الضعف التكويني والانقطاع عن الواقع التي تعي فيها الانظمة العربية.

على سبيل التعليق:

يمكن توجيه مجموعة من الانتقادات الى الجزء الثالث، وتتمحور هذه الانتقادات حول اربعة قضايا تحدث عنها الكاتب في هذا الجزء وهي على النحو التالي:

- النظر الى التدخل السوري في لبنان بنظرة النزعة القطرية الضيقة ليصبح دافع النظام السوري في التدخل في الازمة اللبنانية هو ما يسميه الامساك بالورقة الفلسطينية، وتعزيز مكانة النظام السوري الإقليمية، لكنه لم يتطرق الى دعم سوريا للمقاومة الفلسطينية–اللبنانية لدحر القوات الصهيونية. بالاضافة الى انه لم يتحدث عن دور الوجود السوري في اسقاط اتفاق 17 ايار الذي اريد له ان يحول لبنان الى محمية صهيونية.
- اعتبار المقاومة الفلسطينية انها من مخلفات الفوران الثوري الذي اطلقه عبد الناصر، ويرى بأن المقاومة الفلسطينية بعد خروجها من الاردن وتمددها في لبنان على حساب سيادته الوطنية لم تأت الى بالدمار والمأسي. عدا عن طرحه لحل الدولة الثنائية في فلسطين والتي هي في الواقع تسليم بالوقائع الاستيطانية وتسليم بالمشروع الصهيوني.
- النظرة الى التيار الاصولي فيقول ان انتشار هذا التيار جاء بتشجع ودعم القوى الاستعمارية وأعوانها من النظم النفطية ليكون في مواجهة التيار القومي التحرري العلماني وانتصار ثورة الخميني في ايران كانت دافعاً لهذا التحول. لكن سرعان ما اخذت اقسام واسعة من هذا التيار تتبنى الاهداف التحررية والتي هي اهداف وطنية وقومية، وهذا ما انتبه اليه الكاتب في حديثه عن خطاب حزب الله ابان حرب تموز 2006 ضد الحلف الامريكي الصهيوني حيث يستعيد الكاتب ثقته بالمقاومة (الملحق المتعلق بحرب تموز على لبنان) فبروز التيار الاصولي الاسلامي جاء تعبيراً عن مسار الانهيار امام المشروع الصهيوني.
- موقف الكاتب من نظام صدام حسين فحين كان يبرز اخطاء هذا النظام لم يتطرق الى ما انجزه من بناء قاعدة صناعية وقدرات عسكرية في العراق، الشيء الذي شكل تهديداً للكيان الصهيوني في المنطقة.

الجزء الرابع: بسط الهيمنة الأمريكية والسلام المفقود 1991 – 2003

الطالب الباحث: محمد واحاسي

الفصل السادس عشر : نشوة حرب الخليج

شهد العالم مطلع تسعينيات القرن الماضي ولادة نظام عالمي جديد بعد توقف الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي، كان من سماته الأساسية استعادة الولايات المتحدة لثقتها بنفسها، بفضل النجاح العسكري الذي أحرزته في حرب الخليج. وبموازاة ذلك، ستطال عولمة الاقتصاد العالمي جميع أرجاء العالم. وستدفع هذه الأجواء العالمية الى بزوغ عهد جديد في الشرق الأوسط بما يتيح اعادة تنظيم هذه المنطقة بالطريقة التي يحلم بها الغرب.

لقد شكلت حرب الخليج فرصة سانحة للولايات المتحدة الأمريكية لوضع نهاية لوسواس هزيمة فيتنام، وإعادة ثقة أمريكا بقدراتها العسكرية وبقدرتها السياسية على ادارة النزاعات. لذلك انخرطت القيادة الأمريكية على عهد الرئيس جورج بوش الأب في حملة واسعة لكسب الرأي العام الأمريكي. فتمت شيطنة النظام العراقي، وقدم صدام حسين على أنه تجسيد جديد ل'ستالين' و'هتلر'، وتم الترويج على نطاق واسع للقدرة العسكرية العراقية وسعي العراق لامتلاك السلاح النووي. وبموازاة ذلك، تمكنت أمريكا من حشد تحالف دولي مكون من ثلاثة وأربعين دولة، في مقدمتهم فرنسا وانجلترا، لمواجهة ذلك التجسد الجديد للشر في النظام الدولي.

غير أن ما كان يؤرق أمريكا طيلة فترة حملة الاعداد لحرب الخليج، هو منع التدخل الاسرائيلي المباشر في النزاع مخافة اثارة حفيظة الحلفاء العرب. ذلك أن انضمام بعض الدول العربية الى التحالف الدولي شكل نصرا للدبلوماسية الأمريكية، الأمر الذي أتاح لحرب الخليج أن تشكل ذلك النصر السياسي الكبير.

اجمالا، ان تجاوب فرنسا وأوروبا بدون قيد أو شرط مع النداء الأمريكي، وتحييد اسرائيل، وتفكيك مفاصل العالم العربي واظهاره على الصعيد الاعلامي بأنه أبدى الموافقة بصوت واحد، قد أدى الى الانتصار في حرب الخليج حتى قبل بدء العمليات العسكرية، مما مهد الطريق لعهد جديد في الشرق الأوسط.

الفصل السابع عشر: الطريق نحو السلام: الاعداد لمؤتمر مدريد

وضعت حرب الخليج أوزارها في مارس 1991، وتم تحرير الكويت وعم الدمار والخراب أرض العراق، وألحقت أضرار بالغة ببنيته التحتية المدنية والعسكرية. كما انتشرت البلبلة في شمال العراق وجنوبه، حيث انفجرت حركات تمرد في المناطق الكردية والشيعية. ولإمتصاص الصدمة التي خلفتها "عاصفة الصحراء" في قطاعات واسعة من الرأي العام العربي والاسلامي، ولدحض الاتهام القائل ب"ازدواج المعايير" الذي يمارسه الغرب في الشرق الأوسط في ما يتصل باحترام القانون الدولي؛ أقدمت الدبلوماسية الأمريكية على تدشين انطلاقة جديدة لحل النزاع العربي –الاسرائيلي. واعتمدت في سبيل ذلك ارث الدبلوماسية الكيسنجرية (نسبة الى هنري كيسنجر وزير الخارجية على عهد الرئيس نيكسون) المشهورة بسياسة "الخطوة خطوة" التي تروم تقريب وجهات النظر المتباعدة للغاية بلمسات صغيرة. وهكذا انطلق جيمس بيكر في سلسلة جديدة من الرحلات المكوكية بين دمشق وتل أبيب والقاهرة والرياض لمناقشة ترتيبات مؤتمر دولي للسلام. وتباينت المواقف بشأن المفاوضات المقبلة، ففي الوقت الذي رحب فيه الطرف العربي بتلبية الولايات المتحدة لمطلبين أساسيين للموقف العربي، وهما مفاوضات شاملة متعددة الأطراف ومشاركة الاتحاد السوفياتي؛ أبدى الطرف الاسرائيلي جموحا وتعنتا مشترطا أن يقتصر التفاوض على التطبيع الثنائي للعلاقات مع كل دولة عربية على حدة.

ولتذويب الجليد بين الطرفين، أطلق جيمس بيكر رسائل للفريقين حول "الضمانات". وتجلت حذاقته لدى الاعداد للمؤتمر في اسماع كل جهة ما تود سماعه، بغية محاولة التوفيق بين المبادئ العامة للقانون الدولي والقرارات الخاصة بالأمم المتحدة حول فلسطين والنزاعات العربية–الاسرائيلية وبين المفاهيم الاسرائيلية للسلام والأمن في المشرق العربي.

الفصل الثامن عشر: مؤتمر مدريد

اقتضت ترتيبات اطلاق آلة مسار التفاوض العربي–الاسرائيلي حملة اعلامية واسعة النطاق للتبشير لمنهج السلام الجديد. وهكذا جعلت وسائل الاعلام الدولية من مؤتمر مدريد الحدث الأعظم الذي سيفتح أخيرا عهد السلام في النزاع العربي–الاسرائيلي، مما ساهم في اضفاء طابع ملتبس لمختلف اتجاهات الرأي العام الدولي. فالرأي العام الأوروبي يبحث عن الشعور بالارتياح والتخلص من عقدة الذنب في حال انتهاء النزاع العربي–الاسرائيلي، كما أن الرأي العام الأمريكي المطبوع بالسذاجة مهيأ لتصديق كل ما أقدمت عليه حكومته من" معجزات ". أما

الاعلام العربي الخاضع بصورة تامة لرقابة الحكومات العربية فقد تماهى الى أبعد الحدود مع الرؤية الأمريكية، شأنه في ذلك شأن نخبة عربية من رجال أعمال وخريجي جامعات غربية تسعى بشكل نشيط لسلام سريع يدمج اسرائيل في محيطها العربي. في حين رأت وسائل الاعلام الاسرائيلية في مؤتمر مدريد فرصة سانحة ينبغي اغتنامها لتلميع صورة اسرائيل القاتمة أولا، وللمكاسب الاقتصادية المأمولة من التطبيع مع الجانب العربي ثانيا.

وقد عكست كلمات افتتاح مؤتمر مدريد للسلام رهانات الأطراف المشاركة. اذ دعا الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب الى احلال "سلام حقيقي" وفق معاهدات تهم مجالات ضمان الأمن، واقامة علاقات دبلوماسية، وتفعيل العلاقات الاقتصادية والتبادل الثقافي. في حين بارك ميخائيل جورباتشوف الرؤية الأمريكية لنظام عالمي جديد مبني على أساس الديموقراطية وعلى حق اسرائيل في الوجود. أما كلمتا كل من اسحاق شامير ووزير خارجية سوريا فقد حملتا تكرار كلا الطرفين للظلم التاريخي الذي لحق كلا منهما من لدن الآخر، بينما كانت كلمة رئيس الوفد الفلسطيني حبلى بمواقف صارمة في ما يتعلق بالثوابت الفلسطسنية.

غير أن كلمات الاختتام كانت شديدة اللهجة من الجانب العربي بعد المواقف غير المشجعة التي عبر عنها اسحاق شامير. وفي المقابل، عرف المؤتمر احتجاجات صاخبة لدول وحركات وقوى حاولت تسفيه المؤتمر والقائمين عليه بدعوى التفريط في الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني.

الفصل التاسع عشر: من مؤتمر مدريد الى الاتفاقات الاسرائيلية – الفلسطينية: مسار سلام من دون سلام.

انتهى مؤتمر مدريد في الأول من نوفمبر 1991 بسوء تفاهم بين الأطراف، ومن دون التوصل الى اتفاق حول مكان وزمان متابعة مفاوضات السلام. وتطلب الأمر مجددا ضغوطا أمريكية مكثفة على الحكومة الاسرائيلية لكي تقبل باستئناف المفاوضات في واشنطن. وتم على اثر ذلك عقد أولى اجتماعات اللجان الخمس التي تم تشكيلها في كل من بروكسيل وواشنطن وفيينا وأوطاوا وطوكيو بين 11 و29 مايو 1992، غير أن جميع هذه المفاوضات ليست في الواقع سوى مسرح الظل، لأن العنف على الأرض بلغ ذروته. واتخذ أشكالا مختلفة. فهناك أولا "حرب الحجارة" المستمرة مع العدد الهائل من الضحايا الفلسطينية الذي تخلفه خاصة في غزة، ثم هناك ثانيا اندلاع المواجهات الدخلية الفلسطينية بين مؤيدي عملية السلام من جهة، ومؤيدي "جبهة الرفض" من أنصار حركة حماس والحركات الفلسطينية الأخرى. وكان هناك مصدر آخر للتوتر يدفع الفلسطينيين الى العنف والى القيام

بالعمليات الفدائية، هو العدد الكثير من السجناء الذين يلقي القبض عليهم الجيش الاسرائيلي في أي مكان يشتبه بوجود "ارهابيين" فيه. ثم هناك أخيرا العديد من حالات منع التجول لفترات طويلة بموجب قرارات يصدرها الجيش الاسرائيلي. يضاف الى عمليات العنف هذه في الأراضي المحتلة معاناة سكان جنوب لبنان المستمرة من سياسة الانتقام الجماعية ضد القرى اللبنانية التي تنهجها اسرائيل منذ مطلع السبعينات. قادت هذه الأعمال مجتمعة الى تدهور مستوى المعيشة في الأراضي المحتلة، مما أثار شكوكا حول جدوى عملية السلام.

غير أن بادرة أمل هبت اثر الانتخابات التشريعية الاسرائيلية التي جرت في نهاية شهر يونيو 1992، حيث نال فيها حزب العمل الاسرائيلي 44 مقعدا مقابل 32 مقعدا لحزب الليكود. وقوبل هذا الفوز بارتياح بالغ من لدن الأمريكيين والأوربيين على حد سواء. وبوساطة مصرية، تزايدت الاتصالات غير المباشرة بين الحكومة الاسرائيلية الجديدة بأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية، ليبدأ العمل بارساء شبكة التفاوض في أوسلو بسرية تامة مع نهاية عام 1992. وقد أسفرت هذه المفاوضات عن اعلان الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية ورئيس الوزراء الاسرائيلي في يومي 9 و10 سبتمبر 1993. ورغم مظاهر الارتياح الدولي والحملة الاعلامية المصاحبة له، فقد كشفت بنود اتفاقات أوسلو عن منطق متناقض: ففي الوقت الذي تعهد فيه ياسر عرفات بالاعتراف بحق اسرائيل في العيش بسلام، لم يكن هناك أي تعهد اسرائيلي لوضع حد للتدابير الجائرة التي يذهب ضحيتها الفلسطينيون منذ بدء الاحتلال عام 1967، كما لم يحصل الطرف الفلسطيني على تعهد واضح ملزم، من الناحية القانونية، لايقاف الاستيطان، ومصير المستوطنات، وحق العودة، ووضع مدينة القدس.

في المحصلة، كانت اتفاقات أوسلو سلاما افتراضيا لم يمنع أعمال العنف، غير أنه بات من المؤكد أن دينامية السلام قد شقت طريقها ولا يمكن التراجع عنها. ففي 4 مايو 1994 تم التوقيع في القاهرة على الاتفاق الذي ينظم الانسحاب من غزة وأريحا، والذي يتيح لمنظمة التحرير الفلسطينية البدء بتحمل مسؤولية الأمن في المناطق السكنية الفلسطينية. وتوالت المبادرات والاتفاقيات بوتيرة صورت للرأي العام العالمي أن ثمة مجموعة اقتصادية لدول الشرق الأوسط آخذة في التشكل، وبات مؤيدو عملية السلام يعتقدون أكثر فأكثر أن "شرقا أوسط جديدا" قد رأى النور. غير أن اغتيال اسحاق رابين في 4 نوفمبر 1995 وصعود نتنياهو الى رئاسة الحكومة، والمجزرة الاسرائيلية البشعة في قانا، ستقوض جهود السلام وتؤدي الى تعطيل عملية السلام.

الفصل العشرون: نتائج حرب الخليج

يبدو أن حرب الخليج كأنها لم تقع، فما زال صدام حسين رئيسا للعراق محاطا ومحميا بحرسه الجمهوري، وبعد عام ونصف تم اعادة بناء الكثير مما دمرته الحرب. كما قاوم الرئيس العراقي كل الانتفاضات التي قامت ضده: الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب، وكل الدعوات الأمريكية للانقلاب عليه. وصارت الأولية، كما هو الحال في كل نظام ديكتاتوري، تكمن في الحفاظ على السلطة، لا في مواجهة عسكرية مع تحالف يضم أكثر من أربعين دولة. غير أن نتائج هذه الحرب كانت مريعة على السكان من جراء النقص في المواد والدواء وانتشار الأوبئة. اضافة الى آلام مجانية أخرى ناتجة عن اخفاق انتفاضتين قام بهما السكان وما تلاهما من قمع وتنكيل. وعلى الرغم من تأكيد وقوع الأضرار التي يلحقها الحصار بالعراقيين، استمر الحصار بقرار من مجلس الأمن الدولي. كما دفعت تجمعات بشرية ثمن حرب الخليج غاليا، بحيث تدفقت موجات العمال العرب والأسيويين في الكويت والعراق نحو الحدود مع الأردن وايران.

لم تقف خيبات حرب الخليج عند هذا الحد، بحيث خاب مسعى تحول دول النفط الى الديموقراطية. فقد اعتقد كثير من المراقبين أن حرب الخليج ستؤدي الى انفتاح سياسي وتحديث المؤسسات العتيقة في دول النفط الخليجية. كما أظهرت الأمم المتحدة ديكتاتوريتها الشرسة على العراق، في الوقت الذي لم تطبق في الحالة الفلسطينية قرارات الأمم المتحدة ولا بنود اتفاق أوسلو. وهكذا نشأ حق تدخل ورقابة دائمين في الشأن العراقي، باسم الأمن والسلام في المنطقة، وهو حق لا مثيل له في تاريخ العلاقات الدولية. استعادت الكويت اذن سيادتها ووحدة أراضيها، وصار العراق الخاضع تحت الوصاية، أما لبنان وسوريا فقد بدلتهما أحداث حرب الخليج بحيث أتاحت لسوريا استخدام القوة العسكرية لطرد الجنرال ميشال عون. أما في المنطقة المغاربية فقد كانت مسرحا لاضطرابات دموية خاصة في الجزائر.

الفصل الحادي والعشرون: أحداث 11 أيلول / سبتمبر 2001 وتداعياتها في المشرق العربي.

اثر اعتداءات 11 أيلول / سبتمبر 2001، وبعد ادانة الرئيس جورج بوش الابن لمحور الشر الذي يضم العراق وكوريا الشمالية وايران، شرع الرئيس الأمريكي، في خطاب ألقاه في بداية العام 2002، باستهداف العراق بشكل أولوي. بحيث تمت ادانة الرئيس العراقي لارتباطه بتنظيم القاعدة، ولقدرته على استخدام أسلحة الدمار الشامل، بما فيها السلاح النووي. كما تجددت حملات تضليل الرأي العام حول القوة العراقية. وهكذا، وفي

غياب قرار من مجلس الأمن يجيز استخدام القوة، تم اجتياح العراق في 19 مارس 2003، مع ما رافق ذلك من آلام وضحايا بريئة، وأعمال نهب وسلب مقصودة طالت الارث المعماري التاريخي لبلاد الرافدين.

على المستوى السياسي تم تعيين بول بريمر كحام مدني للعراق خلفا للجنرال المتقاعد جاي غارنر. وكما هو حال كل غاز مستعمر، تعاطى المسؤولون الأمريكيون الموجودون على الساحة العراقية، بشكل خاص، مع رؤساء العشائر والزعامات الدينية، فعمدوا الى استخدام العصبيات الطائفية. ومما سوف يفاقم من خطورة الأوضاع أن دستور مجلس الحكم الانتقالي، الذي عملت سلطات الاحتلال على وضعه في يوليو 2003، قد أرسي على أسس مذهبية وعرقية.

و بعد أن تم تهميش دور الأمم المتحدة حيال الملف العراقي منذ اتخاذ الولايات المتحدة بشكل أحادي قرار الحرب الوقائية ضد العراق، عاد هذا الدور مجددا ليبرز على الساحة، اثر انتهاء الأعمال الحربية. ففي تاريخ 22 مايو 2003 أصدر مجلس الأمن القرار رقم 1483 الذي يوافق فيه على احتلال العراق ويتضمن بعض التدابير والأحكام التي تشرعن تصرفات سلطات الاحتلال، سيما في المجالات الاقتصادية والمالية. غير أن انزلاق العراق شيئا فشيئا في فوضى دموية، دفع بالولايات المتحدة الى تسريع عملية نقل السلطة الى العراقيين.

غير أن ذروة السخرية في هذه الحرب التي أعلنتها الولايات المتحدة بشكل أحادي، ظهرت عندما عجز المفتشون الأمريكيون عن الكشف عن وجود مزعوم لأسلحة الدمار الشامل. كما أن نتيجة التحقيقات التي قامت بها اللجنة المنبثقة عن مجلس الشيوخ الأمريكي حول أحداث 11 سبتمبر 2001، جاءت لتؤكد عدم وجود أية علاقة بين تنظيم القاعدة الارهابي ونظام صدام حسين.

و بتاريخ 8 يونيو 2004 تمكنت الولايات المتحدة من استصدار القرار 1546 بالاجماع، مما وفر لها الغطاء الشرعي لتحويل قوات الاحتلال الى "قوات متعددة الجنسية"، والاعتراف "بحكومة سيادية مؤقتة".

كما كان للغزو الأمريكي للعراق تداعيات وخيمة على المنطقة، خاصة زعزعة استقرار لبنان والتهجم العنيف على دور سوريا الاقليمي. فقد تصاعد التوتر والتجاذب بين مناصري سوريا وأنصار استعادة السيادة اللبنانية بانسحاب القوات السورية. وزاد التوتر بفعل موجات الاغتيال السياسي التي راح ضحيتها الكثير من الساسة اللبنانيين خاصة عملية اغتيال رفيق الحريري.

الفصل الثاني والعشرون: استنزاف الأنظمة العربية: تهميش اقتصادي وتوظيف الدين الاسلامي.

يبدو الوضع الاقتصادي في العالم العربي قاتما جدا نتيجة العوامل التالية:

أ–أدت رياح الليبرالية الاقتصادية والخصخصة، وتحرير المبادلات، التي عمت المنطقة الى ظهور مجموعة كبيرة من أصحاب الثروات الضخمة الذين كانوا مؤثرين في بلدانهم وفي علاقات بلدانهم بالعالم الخارجي.

ب–ليس للعالم العربي منطقة نمو اقتصادي، فبالرغم من الثروة النفطية، تبقى الاقتصادات العربية متدنية الحجم اذا قارنا ناتجها المحلي أو صادراتها بمثيلتها في اسرائيل أو بعض بلدان آسيا.

ج–بالرغم من الثروات الاضافية التي يوفرها القطاع النفطي والتي تم تداولها بين عامي 1973 و1982، فان هذه البلدان هي الأكثر مديونية في العالم نسبة الى صادراتها.

د–ساهمت برامج التعديل البنيوي (التقويم الهيكلي) المعمول بها تحت مراقبة صندوق النقد الدولي في أكثر من بلد عربي في تردي أوضاع الفئات الشعبية.

هـ–النقطة السوداء الأخيرة في اقتصاد البلدان العربية هي الوضع الديموغرافي في ممالك وامارات النفط في شبه الجزيرة العربية ووضع العمال العرب والأسيويين المهاجرين. ان هذا الوضع مصدر قلق مزدوج: قلق السكان المحليين وحكوماتهم أولا من وجود عدد كبير جدا من العمال الأجانب، الخاضعين لمراقبة دائمة؛ ثم قلق السكان من غير أهل البلد الذين يعيشون بدون أية تأمينات اجتماعية وفي ظل الخوف من الطرد.

ينضاف هذا الكبت الاجتماعي الى الضيق النفسي في الانتماء الى كيانات سياسية رخوة، خاضعة لسيطرة القوى الغربية. لذلك اضحى الدين الملاذ النفسي للخلاص الفردي والجماعي من القهر والضياع والكرامة الوطنية المهدورة، فتزايدت مظاهر التدين الخارجية، وتسارعت وتيرة اعادة أسلمة المجتمعات العربية عبر "الصحوة الاسلامية"، وتناسلت الحركات الاسلامية. وقد توسلت الأنظمة العربية الدين ووظفته بما يخدم مصالحها ويدعم نفوذها، ويضمن استقرارها السياسي. ويبدو أن العلمنة، أي عدم توسل الدين وتوظيفه لأغراض سياسية، هي الحل الوحيد المعقول في كل البلدان التي تتعايش فيها مذاهب اسلامية مختلفة، أو حيث يتوجب على الاسلام أن يتعايش مع جماعات دينية أخرى.

ومع اعتداءات 11 سبتمبر 2001 ستعود الحركات الاسلامية بقوة على الساحة الدولية، وسيكون لهذه العودة تبعات وعواقب على استقرار الأنظمة العربية التي اهتزت عروشها على وقع العمليات الارهابية. وستفضي

هذه الأحداث الى تصاعد التحريض ضد الاسلام. وانتهزتها أمريكا وحليفتها اسرائيل فرصة لإملاء قانونهما الخاص على مجمل المنطقة: الأنظمة العربية مدعوة لكي تصبح ديموقراطية، ومشاطرة قيم الغرب، وأن تخلو الكتب المدرسية من أية اشارة تمس باسرائيل والصهيونية.

الفصل الثالث والعشرون: الدينامية الاسرائيلية المعقدة ونهضة اليهودية.

ان الدعم الذي توافر لدولة اسرائيل كان لمدة طويلة نتيجة عذاب ضمير المجتمعات الأوروبية، وكان مصحوبا بمناورات من نمط امبريالي قامت بها ابريطانيا العظمى وحرص الآباء المؤسسون لدولة اسرائيل على الاشادة بها للحصول على وعد بلفور الشهير عام 1917. لذلك تنطوي عودة اسرائيل في الوعي الغربي على دلالة رمزية كبيرة تؤكد سير التاريخ نحو التقدم والاتمام. فبقدر ما تعذبت اليهودية عبر العصور في أوروبا، منذ سحقتها الكنيسة الظافرة التي تحكمت في كل مظاهر الحياة الاجتماعية، يبدو استكمال التاريخ الاسرائيلي في النفسية الغربية عادلا ومعقولا. كما ساهم تجديد الدراسات حول الحرب العالمية الثانية والمحرقة في احداث تغيير عميق في تصورات الغرب عن اسرائيل، خالقا مناخا أكثر ملاءمة لتأكيد قوتها وتدعيمها. وبذلك حظيت العقيدة الصهيونية بشرعية راسخة في نظر الرأي العام الغربي، الذي أضحى مقتنعا بأن لا شيء يحمي اليهود الا تحقيق قيام دولة خاصة بهم. وبالتالي فان وجود اسرائيل ونهضة اليهودية أصبحا وجهين لعملة واحدة. وتمكنت اسرائيل بدون صعوبة أن ترتفع الى مستوى قوة اقليمية لا تنازع، وأن تصبح شريكا لأكبر قوة عسكرية في العالم، ضمن علاقة هوية معقدة، مع تطور الوعي الغربي.

ولد الشعور بآلام اليهود ونهاية التمييز بين العداء للصهيونية والعداء لليهودية يقينا راسخا لدى الغرب مفاده أن مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو كفيلان بوضع حد لعذابات الضمير التاريخي لأوروبا. لكن ذلك لم يمنع أصواتا حتى من داخل اسرائيل من انتقاد السياسة التوسعية الاسرائيلية وما تخلفه من مآسي، اذ لم يتردد الطبيب الاسرائيلي ياشاياهو ليبوفيتز من المطالبة بضرورة نزع القداسة عن الدولة بسبب تحولها الى آلة لقمع شعب آخر. فالصهيونية، علمانية كانت أم ايمانية أم خلاصية أم روحية أم دنيوية، اصطدمت في الواقع بوجود الفلسطينيين، الأمر الذي طرح عليها منذ البداية مشكلة خطيرة: ماذا نفعل بالفلسطينيين؟

من المستحيل أن تقبل الدينامية الصهيونية مبادئ القانون الدولي التي تقضي بحق الشعوب في تقرير مصيرها. لذلك كانت هذه الدينامية تخلق على الأرض واقعا جديدا، وتولد مقولات مفهومية جديدة خاصة

بأغراضها وأهدافها من قبيل "الملجأ القومي" وغيرها... هذه المقولات أبعد من أن تتلقى قبول الطرف العربي المسلح بالشرعية القانونية: قرار الأمم المتحدة في ما يتعلق بتقسيم فلسطين، أو ذاك المتعلق بالانسحاب من الأراضي المحتلة عام 1967، أو القوانين المتعلقة بحقوق الانسان واتفاقات جنيف.

ينتهي الكاتب في هذا المقام الى التأكيد على أن السلام المزمع بناؤه يستوجب التساؤل أولا عن كيفية تخفيف حدة الحيوية المفرطة في الدينامية الاسرائيلية؛ وثانيا حول كيفية تضميد الجراح الملتهبة في العالم العربي الذي ما يزال يتجرع ويلات عجزه البنيوي عن الولوج الى الحداثة السياسية.

على سبيل التعليق:

يعتبر هذا الجزء الأخير من أجزاء الكتاب في نسخته العربية، من أهم الاجزاء كذلك لكونه يتناول قضايا طرية ولاتزال قراءتها من منظور تاريخي، أمر غاية في الصعوبة، وهي القضايا والاحداث التي شهدتها العقدين الأخيرين من المنطقة، والتي يحقبها الكاتب على انها المرحلة الثانية من مسلسل الهيمنة الأمريكية على المنطقة في ظل ما بات يسمى النظام الدولي الجديد.

يركز الكاتب خلال هذا الجزء على قضيتين أساسيتين، تتعلق الأولى بأزمة الخليج، والثانية بإشكالية السلام وحل الصراع العربي الاسرائيلي، ولهذا نجده يبدأ هذا الجزء بفصل حول حرب الخليج الأولى، وما رافقها من تهييج اعلامي، وشيطنة لنظام صدام حسين في العراق، وتشبيهه بالأنظمة النازية والفاشية، وفي هذا الصدد أسهب قرم في انتقاد أخطاء النظام العراقي، في الوقت الذي تجاهل فيه الكثير من مزاياه وانجازاته.

بخصوص القضية الثانية التي أخذت قسط وافر من اهتمامات الجزء الرابع، وهي قضية الصراع العربي الاسرائيلي، والسلام المفقود، فنجد الكاتب يركز بشكل ملفت على مؤتمر مدريد، الذي خصص له ثلاثة فصول، واعتبره نتيجة تحرك الالة الديبلوماسية الامريكية، التي كانت تسعى إلى ابعاد تهمة الكيل بمكيلين عن نفسها، بعد حرب الخليج.

ومن بين ما يؤخذ على الكاتب في هذا الصدد دعوته في نهاية هذا الجزء، إلى بناء عملية السلام عبر التخفيف من الحيوية المفرطة في الدينامية الاسرائيلية، وتضميد جراح العجز البنيوي العربي.

الخاتمة والملاحق

الطالب الباحث: طارق بنتابت

الخاتمة

يرى "جورج قرم" أن مجتمعات المشرق العربي، ومنذ نهاية السلطة العثمانية، تعيش على إيقاع أزمة شرعيتها الوجودية والتي زادت الدينامية الإسرائيلية من تعميق حدتها.كما أن حدث حرب الخليج أنهت كل الأوهام بمستقبل يُؤمِّن التقدم بعد الانفراجات المتلاحقة التي عاشتها المنطقة خلال نصف القرن المنصرم(حركات التحرر،الثروة النفطية، الصحوة الإسلامية...). إلى جانب ذلك، ساهمت أحداث الجزائر الدموية في التسعينات في زيادة تعميق جراح الأزمة الوجودية لهاته المجتمعات وتفردها مما جعلها محط أطماع اقتصادية لكل من المحور الأمريكي – الاسرائيلي والمحور الأوروبي ناهيك على الانعكاسات السلبية الكبيرة لهاته الأحداث على عزيمة الشعوب في نشدان كل تغيير.

-رغم الروابط المتعددة (لغة،تاريخ،دين) التي تجمع مجتمعات المشرق العربي فإن التفتت والتشتت يعد السمة الغالبة على مختلف الكيانات السياسية المشكلة لها وهي سمات زادت الوصاية الغربية من حدتها مما ساهم برأي الكاتب في إذكاء النزعات التقوقعية عند شعوبها.(التطرف...).

-إن استجلاء إمكانات علاج هاته الأزمات يتوقف على تغيير أطر أنظمة الإدراك والذاكرة المتناقضة، تغيير يقوم على بلورة فكر سياسي وتجديد ثقافي نابع من رحم هاته المجتمعات وقادر على كسر مختلف ديناميات الإخفاق النابعة من تشابك عوامل داخلية محلية وأخرى خارجية.

هكذا حدد المفكر" جورج قرم" سبل الخروج من المأزق الحالي في النقط التالية:

-الابتعاد عن النظرة الإقتصادية الساذجة القائمة على الاعتقاد بقدرة الاقتصاد الاسرائيلي على معالجة الجمود الاقتصادي العربي من خلال عقد شراكات معه والاستعاضة عن هذا الحل الساذج ببديل آخر يقوم على القضاء على أسس الاقتصاد الريعي عن طريق كبح نمو الإقطاعية الوراثية وشبكات الفساد المتفشية في القطاعات العامة والخاصة مع القيام بإصلاحات اقتصادية ذات طابع ليبيرالي عن طريق تحويل قطاعات الطاقة والثروة الفوسفاطية إلى القطاع الخاص.

-إنهاء احتلال العراق وإخراج لبنان من الصراعات الإقليمية ووالامتناع عن استعماله كساحة صراع بين الفرقاء المتناحرين في المنطقة واستعادة دوره التاريخي الريادي كهمزة وصل بين الشرق والغرب.

-بلورة رؤية جديدة للصراع الفلسطيني الاسرائيلي تتأسس على نظرة حقيقية إلى المستقبل تتجاوز صدمات الماضي والعقليات الجامدة لدى كل الأطراف وهي رؤية تقتضي التحلي بنوع من الواقعية القادرة على تصور دولة بقوميتين مع تدويل منطقة القدس الشريف.

-إقامة سلام في المنطقة بناء على قانون دولي ذو منطق علماني يقف على الحياد بالنسبة إلى الهويات الإثنية واللاهوتية والدينية....

-إقامة سياسة ليبرالية في المنطقة قادرة على احتواء كل الأطراف بما فيها الحركات الاسلامية مع التشجيع على التكتلات الاقتصادية والتضامنية بين كل شعوب المنطقة نُشْدانًا لاقتصاديات محلية منفتحة على بعضها البعض.

تلخيص الجزء المتعلق بملحقات توثيقية ومرجعية

استهل الكاتب هذا الجزء بالحديث عن التوجهات والمرجعيات المعروضة باعتبارها استكمالا للمؤلفات المذكورة على امتداد الفصول،وهي تمثل خريطة إجمالية موجزة.

في الملحق الأول :

يعرض الكاتب إلى تصنيف، المراجع التي تحدثت عن المجموعات العرقية والدينية الموجودة في العالم العربي، من خلال الحديث أولا عن المراجع والكتب التي تحدثت عن الأقليات الاثنية(الأكراد-الأمازيغ) ثم الطوائف الدينية الغير مسلمة (المسيحيين-اليهود) ثم الطوائف الدينية غيرالسنية (الشيعية-إباضية)

بعد ذالك يعمد الكاتب إلى الحديث عن التوجهات المرجعية الإجمالية من خلال الحديث عن المؤلفات العامة، ثم المؤلفات التاريخية التي قسمها إلى مرحلتين تاريخيتين وهما(مرحلة ماقبل الإسلام-المرحلة الإسلامية)، ثم المراجع التي تتحدث عن التعددية الدينية والطوائف في المشرق، وكذلك المراجع المتعلقة بالإشكالية المعاصرة عن الهوية العربية، وفي الجزء الأخير من الملحق الأول يتحدث الكاتب عن،أحداث ومؤلفات حديثة حول العالم العربي.

في الملحق الثاني:

يتحدث الكاتب عن تركة-الرجل المريض —والمسالة الشرقية *معتبرا* أن بلورة معرفة حقيقية بالمشرق العربي تمر عبر قراءة عميقة لتاريخ تفكك السلطة العثمانية وخصوماتها مع القوى الأوروبية مع ضرورة التماس الموضوعية أثناء قراءة كل المؤلفات الغربية حول المسألة الشرقية والتي اتسمت في غالبيتها بالتحيز والتشويه، *عارضا* لكل الكتب والمراجع التي تعرضت لهذا الشأن.

في الملحق الثالث:

خصصه الكاتب للمراجع المتعلقة بجامعة الدول العربية وقمم رؤساء الدول العربية وميلاد منظمة التحرير الفلسطينية لافتا نظر القارئ لقلة المراجع في هذا الصدد.

في الملحق الرابع:

تم تخصيصه للمراجع المتعلقة بالصهيونية والصراع العربي الإسرائيلي مركزا على مذكرات أهم القادة الصهاينة (ويزمان-بن غوريون-)وكذالك المراجع المتعلقة بالحروب العربية الصهيونية.

في الملحق الخامس :

يتحدث فيه الكاتب عن المراجع المتعلقة بالتطور الاقتصادي في الشرق الأوسط من خلال معطيات تاريخية وتحديد للمراحل خاصة مرحلة التسيير عبر الدولة ذات التوجهات الاشتراكية بالتعاون مع الاتحاد السوفيتي ومرحلة التسيير بواسطة الريع النفطي،بالتعاون مع الغرب الرأسمالي.

في الملحق السادس:

يخصصه الكاتب للائحة المراجع بحسب البلدان(مصر-سوريا-لبنان-فلسطين-العراق والأردن-العربية السعودية والبلدان النفطية العربية أخرى.

فهرس



هذه القراءة

تسعى هذه القراءة إلى تسليط الضوء على فصول الكتاب، وتبيان ما بين ثنياه من أفكار وتحليلات للأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة، معتمدين على تلخيص أهم الأفكار المجودة في فصول الكتاب وفق لنفس التقسيم المنهجي الذي اعتمده المؤلف، ثم التعليق عليها في نهاية كل جزءِ من الأجزاء الأربعة، على أن يكون التعليق مقتصراً على القضايا التي نرى أنها في حاجة إلى ذلك إما تثميناً وإبرازاً للأهمية، أو نقداً وتنبيهاً للقارئ إلى ضرورة التدقيق والقراءة الكتاب قراءة نقدية، دون يعني ذلك أي انتقاص من الكتاب، بل من باب إبداء الرأي في قضايا لم تحسم فكريا وسياسيا، ولا تزال محل تطارح فكري.